طموح

رواية

فاطمة البقاعي

الجزء الأول

مؤسسة قادح زناد الحروف

مجلة الكترونية متخصصة

فى الأدب والإبداع

رئيس مجلس الإدراة

د. مهاب الباروردى

رئيس التحرير

إبراهيم عمار

هيئة التحرير

هيئة التحرير

محمود الشريف

إسلام الديب

فراج الشريف

أحمد على

زين الشريف

أحمد جاد

إسلام الشريف

دعاء عبد الفتاح مصطفى البحيرى

الاصدار التاسع

رقم الإيداع: ١٦٩٤١ / ٢٠١٨

الترقيم الدولى: 4 - 735 - 776 - 977 - 978

الإهداء

إلى روح أبى الطاهرة

وإلى كل من شد على يدى وساعدنى

محاولات لاسترجاع الذاكرة

يجلس خلف طاولته المستطيلة، محاولاً أن يخط لنفسه بعضاً من ماضيه أجل فهو مازال حتى الآن يسأل نفسه: ماذا فعل في سنينه الماضية؟

مازال لا يدري لأنه حتى تلك اللحظة التي فكر فيها بكتابة هذه الصفحات، كان ما يزال يشعر بأنه لم يحقق معظم طموحاته وأحلامه

هكذا نحن البشر أشياء كثيرة تقف حائلاً بيننا وبين طموحاتنا ، مازال بعضه يمزق بعضه من الغيظ، لأن حبيبته السابقة مازالت مرتبطة بـ فراس رغم أنه يعلم بأن فراس لم يقنعها، ولن تحتل المكانة التي كان يحتلها هو في السابق في قلبها ليس فراس حبها الأول، ولن يصبح ومع ذلك تجده الزوج المناسب ، هو من سينقذها من غدر الزمان، أنه طبيب وقد أخذ حقه كما يجب في المستشفى، نال ثقة المدير وفتح لنفسه أفاق عاليةً خارج حدودها

أفاقاً تؤهله لفتح عيادة خاصة له، يعلم بأن الحبيبة السابقة لم تعد فتاة الأمس أشياء كثيرة قد تغيرت منذ تركها، أحياناً يفكر بأن والدها قد مات كي تعيش هي وأخوتها ولكي تنطلق نحو الحياة العملية، وتكتشف ذاتها متخليةً بذلك عن أحلامها السابقة ، بل إنها رمت الماضي خلف ظهرها فلو كان والدها ما يزال حياً لما استطاعت الخروج من منزلها

الذي كانت تظنه للأسف قصراً مضاءً بالأحلام مسيجاً بالذكريات الجميلة ومطرزاً بجمع الشمل

فهي في الماضي أحبت منزلها كونه جمعها بمن تحب والديها وأخوتها في تلك الليالي المقمرة والأحاديث الشيقة.. حقيقةً كانت تلك الليالي مظلمة بل حالكة السواد والأحاديث كانت تسرق الجميع مما يمكن أن يحدث في الغد

كان شمل عائلتها رمزاً تقتدي به أمام الأخرين ربما تكون قد جمعته الحكاية الشيقة والأمنيات جمعهم الحب والذكريات كل شيء كان رائعاً بالنسبة لها آنذاك عندما خرجت للعالم الأخر اكتشفت بأنها كانت ميتة بحيث جعلها واقعها تجهل كل شيء عن العالم الخارجي صدقاً مازال لا يعرف كيف تكون البداية فكل شيء في ذهنه مازال مشوشاً يحبها.... نعم يحبها رغم أنه مازال يجدها تنتمي إلى ذات الطبقة التي حاول مراراً انتزاعها منها في السابق

مازالت في نظره فتاة أقل من عادية وتفكيرها أقل من محدود، إنه يجهل عنها الكثير فهي إمرأة بكل معنى الكلمة إلا أنه وبسبب البيئة التي نشأ فيها يريدها أن تملك عقل ودماغ فيلسوف،لا تحمل بداخلها إلا الماضي البائس وعصارة ذكريات .... إنه يظن بأن المال يصنع مجداً للإنسان من قال ذلك؟

لا أحد إلا الأغنياء أمثاله فالفقر الذي عاشته لم يشعرها بالنقص بتاتاً بل أنها عاشت مع والد جعلها ترسم لنفسها أحلاماً تفوق الخيال ،حتى الفقراء يحلمون بالغد الجديد القادم إليهم من حيث لا يعلمون حتى هم يحبون ويعشقون ويبنون لأنفسهم قصوراً حتى وإن كانت في الهواء تبقى بالنسبة لهم صورة جميلة يبحثون دوماً عن الجديد

أصبح يعلم عنها الكثير حلمت طويلاً منذ سنوات بأن تصبح طبيبة كما أراد لها والدها، إلا أن الظروف لعنها الله وقفت حائلاً بينها وبين تحقيق الحلم فتحول حلمها إلى سراب، حين اضطرت للعمل كممرضة في مشفى ضخم ،لم تكن تحلم بالخروج من ذلك الحي الفقير لترتقي إلى ذلك اللقب الذي حسدتها عليه الكثيرات إنهن لا يعلمن مقدار التضحيات التي قدمتها لكي تصل إلى ما هي عليه ،لقد اضطرت لترك دراستها قبل أخذها الشهادة الثانوية، وقد كانت تعد نفسها منذ الصغر للدخول إلى كلية الطب سخر منها القدر، فجعلها تستبق الأحداث لتأخذ شهادة وفاة أبيها من مكتب دفن الموتى.

مات قبل بلوغه الخامس والأربعين من العمر ، وجدت نفسها مجبرة على ترك دراستها لإعالة أخوتها وأمها وقد فعلت هذا برجاء من أمها التي وجدت نفسها بأنها أصبحت وحيدة أمام ضعفها وعجزها ، فبعد رحيل الرجل الذي كان ينفق عليهم جميعاً ضاق الحال بهم رغم أنه كان رجلا بسيطاً فهو لم يتخرج من السوربون ولم يكن موظفاً في أي دائرة حكومية أو حتى خاصة ، كان يعمل مزارعاً في مزرعة أحد الأثرياء وقد عاش تحت رحمة ذلك الرجل عشرون عاماً، بعد رحيل والدها في أيام قليلة وجدت صاحب المزرعة يدخل منزلها المتواضع معزياً أمها ووضع حين ذاك تحت وسادة الأريكة ، مبلغاً من المال دون أن يفكر بحال أمها بل وحالهم جميعاً هو محق، فلم يكن بينهما عقد خطي قانوني ينص على ضمان حقه في حال مرض أو أصابه العجز والكبر ، ظن والدها بأن الثقة وحدها تكفي وهذا ما أقنعه به ذلك المالك بحيث أبعده عن ضمانه في نظام التأمينات الإجتماعية لضمان مستقبله في حال تخل عنه أو مات لكي يضمن حقوق أولاده مستقبلاً أرهقه العمل كثيراً، بحيث أخل صاحب المزرعة بالشروط التي كانت بينهما كان الاتفاق قبل البدء في العمل أن يكون عمله في المزرعة ثماني ساعات فقط وعندما باشر أبيها في عمله

أجبره على العمل أكثر من عشر ساعات يومياً وبنفس الأجر المتفق عليه

لم يكن صاحب المزرعة مسؤولا عن أي ضرر يصيب عامله ولم يكن مسؤولا عن طبابته كما هو الحال في بعض المجتمعات العوذ والفقر وحدهما من جعل أبيها ينصاع لأوامر الرجل اللئيم والشحيح ، ذلك الرجل الذي لم يقم وزناً للمشاعر الإنسانية وليس هذا فقط بل إنه تجرأ وقال لأمها: رحمه الله كان عليه أن يخبرني بشأن مرضه لكي احتطاط وابحث لمزرعتي عن مزارع آخر

ذلك المستبد كان يعلم بأن والدها لم يكن يشكو علة وقد استطاع خلال السنين الماضية أن يصنع من مزرعته جنة عدن ، لم يفكر بحال أمها المسكينة المفجوعة بزوجها الذي رحل إلى الدار الأخرة، تاركاً لها ثروته الحقيقية التي جناها خلال عشرون عاماً سبعة أولاد،أجل هي ثروته الحقيقة هذا هو حال الفقراء في مجتمعنا، غالباً تكون ثرواتهم من الأولاد ، كرهته سلام كثيراً وتمنت قتله ذات يوم ،هو من جعلها تكره نفسها كونها الابنة البكر لوالدها والمعيل لكل هؤلاء الأشقاء لم تكن تبلغ السابعة عشرة بعد، لقد بدأت تعمل كممرضة متخلية بذلك عن أحلامها الحقيقية وهو أن تدرس لكي تصبح طبيبة، لم يدرك ذلك الرجل بأن تلك الثروة البشرية تلك الكتل الحية تحتاج للرعاية والدراسة والطبابة، ظن بأنه اغناهم عندما قدم لهم تلك الآلاف القليلة أهذا هو ثمن أبو محمد؟

أهذا هو ثمن والدها...ألم يكن يستحق تعويضاً يشهد على تعرق السنين أو حتى راتباً شهرياً تنفق أمها على أخوتها منه؟

أنه معذور، لقد علمت سلام بأن المال يعمي البصائر ويستأجر ضمائر المترفين ويخدر مشاعرهم بأفيون الجشع والطمع يخدرهم بحب الحياة ويغريهم بالخلود وبالعالم الباذخ الذي يجعلهم لا يفقهون ما تعانيه

الطبقة السفلى- طبقتهم هم - هو أيضاً أخبرها عندما تعرف عليها.... بل لم يخبرها لأن عينيها هي التي أخبرتها بأنه يحتقر الفقراء ويشمئز من رؤيتهم كان المشفى يعج بالأطباء والممرضين حين رآها أول مرة وقد كان لقاءً عابراً احتقره بشدة هو نفسه لا يدري لماذا احتقر ذلك اللقاء رغم أنها آيةً في الروعة و الجمال ؟؟

اعتقد بأنها كانت متشوقة لرؤيته رغم أنه يعلم بأنها ربما لا تعرفه ولا تعرف سبب وجوده في المشفى إلا أنها علمت فيما بعد لقد رسمت له صورةٌ خاصة وأيقنت من خلالها بأن والدها الرجل الفقير علمها احترام الناس وحبهم بينما علمه أبوه العجرفة والتكبر وزرع فيه الأنانية من خلال عالمه الباذخ ظن نفسه بأنه ملك الدنيا ، أصبح يعلم بأنها كرهته منذ اللقاء الأول وحقدت عليه ولعنت الحياة التي يعيشها كيف لا يريدها أن تكرهه وتحقد عليه وصاحب المزرعة ذلك المالك الذي زرع فيها هذا؟

بسببه تركت مدرستها وتخلت عن طموحها فمات حلمها الأول قبل أن يولد مات كما لو أنها لم تعد نفسها لبنائه ذات يوم كلية الطب التي حلمت بأن تدخلها من أوسع أبوابها قد أقفلت في وجهها جميع الأبواب كما لو أنها تقول لها: أبقي كما أنت وعيشي في الحي الذي تنتمي إليه وإياك والنظر إلى الأعلى فكلية الطب خلقت للأغنياء ولم تخلق لأمثالك هذه هي حبيبته التي عشقت الحرية واستنشقت النسيم وزرعت الطبيعة مالم تزرعه في الكثيرات من بنات الأغنياء حلمت... وحلمت وبنت في دنيا أحلامها أفاقً عالية صنعت من خلالها المستحيل وكانت سعيدة بما كانت تبنيه لمَ لا فليس لطموحاتها حدود رحيل والدها في تلك الفترة لم يكن متوقعاً بالنسبة لها تلك الفترة التي كانت بتصورها الضربة القاضية والحاسمة نحو طريق المستقبل.

كانت آنذاك تستعد لدخول امتحانات الشهادة الثانوية عندما دخلت اختها الصغرى ووجها مبلل بالدموع فألقت على مسامعها تلك الصاعقة التي دمرتها وحطمت حلمها وقتلت طموحاتها فماتت كل أمنياتها التي تمنتها لنفسها في السابق تركت ورقة امتحانها وهجرت حجرة دراستها واستعدت للرحيل الى عالم أبيها لكي تتلقى التعازي بالنيابة عن أمها ،التي أفقدتها الصدمة صوابها واقعدتها طويلاً طريحة الفراش تركها زوجها وحيدة وهو يعلم بأن العبء عليها ثقيل ولكنها سرعان ما هدأت وعادت الى طبيعتها فهي تعلم بان الله يخلق ثم يأخذ وهو من يعيطي الناس خيراً إن شاء ذلك

كانت سلام قوية أكثر من أمها بحيث بقيت متمسكة برباطة جأشها وتقبلت ذلك الأمر بصبرٍ وجلدٍ كبيرين لكي تخفف عن أمها أعباء أحزانها، انقضى شهران بأكملهما قبل أن تفيق من صدمتها كيف لا وقد كان يجمع بينهما حب عميق وظل الحب حتى مات لتفق أمها من رقادها وسلمت للأمر الواقع ولقضاء الله وقدره واستعادة إيمانها بالله

أحست الأم بحاجة أبنائها لها فأرادت أن تعوض عليهم ما فقدوه من عطف وحنان ابيهم الذي كان يستدره عليهم أرادت أن تبقى لهم وتبحث لنفسها عن عمل تقتات منه عملت مع قريناتها من النساء في الحقول المجاورة وتتقاضى أجرها يومياً وقد كانت تعمل في اوقات واماكن متفرقة وخاصة في مواسم الصيف تعود اليهم محملةً بما لذ وطاب من خيرات تلك الحقول من الخضار والفاكهة المنوعة كانت سلام .. تتمزق من الاعماق حين تراها تشكو من قطاف البامية والباذنجان لمَ فيهما من اشواك مؤذية كانت عاجزة تماماً عن مساعدتها في الحقل لتدعم معها مدخول المنزل لأن أمها كانت ترفض عملها في الحقولوهي تعلم بأن أمها محقة لأنها تريد لها الأفضل وفي مكان آخر.

رغـــم كل متاعبهـــا كانت تعود اليهم وهي في غاية الســـعادة كما لو أنها تعود من الســـوق بعد أن قامت بجولة مطولةً في التســـوق تنسى تعبها وتعرقها وآلامها تنســـى تغيبها عـــن أولادها طوال النهار حتى يوم الجمعة لم يكن يوم راحة بالنســـبة لها كانت تجد نفســـها مجبرة على الذهاب الى الحقل لكي تنال أجرها مضاعفاً من المحصول والمال كانت تعاني وزميلاتها من فصل الشتاء لأنه يعرقل عليهن مسار عملهن فتعود جميعهن إلى منازلهن بخفي حنين أمعقول أن يصبح فصل الشتاء نقمة على العاملـــين في الحقول بينما هو عرس الأرض وفرحتها؟

ربما اضطرت ســـلام للالتحاق بمدرســـة التمريض فتلك المهنة لا تحتـــاج الى مصاريف كثيرة ولا لشـــهادات عليا شـــهادة واحدة كفيلة بإثبات هويتها كممرضة وهذا ما جعلها تتحمل مسؤولية أخوتها أخيراً حصلت على الشـــهادة المرجوة وعن جدارة ومنـــذ ذلك الحين أصبحت تجوب المشـــافي الخاصة للبحث عن عمل البحث لم يكن ســـهلاً بالنسبة لها حتى انها عملت لدى طبيب تعرفه وكان والدها يعرفه قام الطبيب بـــدوره الأبوي وعمل بضميره وراح يصف لها عيـــادات اخرى تعمل فيها في اوقات فراغها فالعيـــادة التي اتخذها في نفس الحي الذي تقيم فيه لا تصلـــح الى ان تفتح لها افاق عالية خاصـــة وانها اخذت مكانها في ذلك الحي الحقـــير الذي يمقته حبيبها الأول.

انتظرت طويـــلاً حتى بلغت الهدف أجل لقد بلغها الخبر الســـعيد وهو أنها قبلت في إحدى المشـــافي للعمل كممرضـــة أيقنت من يومها بأنها ســـتجبر أمها على ترك العمل المضني في الحقـــول انقضت الأيام الأخيرة ثقيلة... ثقيلة، على حين زار الطبيب منزلها المتواضع وأخبرها بأنها يمكنهـــا العمل منذ اليوم الثاني لمقابلتهـــا لم تكن تصدق بأن في الحيـــاة يوجد أناسٌ يمدون يـــدا العون للفقراء أمثالهـــا ،ماهي إلا أيام

قليلة حتى تأقلمت مع وضعها الجديد بحيث بدأت العمل وتحت اشراف رئيسة الممرضات مع من سبقوها إلى تلك المهنة الملائكية أحست وهي ترتدي ثوبها الأبيض بأنها اعتلت صهوة المجد على الأقل استطاعت ان تحقق جزءاً من الحلم القديم أصبحت تشعر بالفخر كونها وقفت إلى جانب الطبيب المعالج لأية حالة وتراقبه أثناء معالجته للمرضى وتتأمله وهو يعطي تعليماته لذوي المريض أيقنت تماما بأن لا فرق بينها وبين الطبيب المعالج كلاهما يؤديان رسالة إنسانية واحدة اصبحت تجد في عملها ملجأً من العذاب والفقر اللذين كانت تعيشهما مع عائلتها اجل فقبل ان تبدأ العمل كانت تعيش في عالم غريب ليس عالمها عالم يفصلها عن الأخرين

الأخرين هم الفئة التي ظنت لفترة من الفترات بأنهم لا يفكرون إلا بأنفسهم ولا يخدمون إلا مصالح أنفسهم وهو كان بالنسبة لها من الفئة نفسها خرجت إلى العالم الآخر عرفت في وقت متأخر بأنها ليست وحدها في هذا العالم من تعاني بل أن هناك آلافاً مؤلفة من الناس الذين يعيشون الفقر والجوع والألم واضطهاد والحرمان أناسٌ زجتهم ظروفهم في فوهات النسيان ليصبح الضياع حليفهم كانت سعيدة كونها حققت حلمها لأنها أصبحت تمد يدا العون لأمها وإخوتها ولأنها اصبحت تعيش حياتها كما تحب وتشتهي وأمها كانت راضية عنها كل الرضى إلا أنها مازالت تحلم بأن ترتقي هي وعائلتها إلى عالم أفضل وقد أصرت على أن يتابع جميع أخوتها مشوارهم الدراسي بدون اية ضغوط مادية تمنعهم من تحقيق اهدافهم المستقبلية أنها تحقق من خلالهم ما عجزت عن تحقيقه في السابق فهي مازالت حتى هذه الساعة تحمل في قلبها تلك الغصة غصة الحلم الذي مات في أعماقها قبل ان يولد اشياء كثيرة حملتها في نفسها من الماضي وهذا ما كان يعكر عليها صفوة الحياة .

النظرة الأولى

لم تكن نظرة أولى بل كان لقاءً وقد احتقر كل منهما في تلك اللحظات نظرات الأخر ،رآها تجوب ممرات المشفى بينما كان يأخذ ذرع المكان ذهاباً وإياباً رغم أن قلبه يغص بالألم إلا أنه لاحظ إعجاب الجميع به حتى أنه لفترة من الفترات أحس بينه وبين نفسه بأنه يسخر منهم رغم أنهم من يجعلوه يشعر بالغرور والانتصار، تضايق عندما اكتشف بأنها وحدها لا تشارك صديقتها أو معظم صديقاتها بالنظر إليه كيف تتجرأ وهو الذي سحر الملايين

لماذا ذلك التجمع وهي وحدها بعيدة عنه كل البعد؟

خافت سلام من ذلك التجمع الكبير من الممرضات أمام غرفة أمه فلمحها تعدو لتخترق الزحام مستقصية عن الأمر وتلك المرة الأولى التي يراها فيها عن قرب ، سحرته تلك النظرة التي شعت من عينيها الواسعتان وسحره ذلك البريق الذي تحمله داخل أعماقها وجذبته إبتسامتها الساخرة وعنفوانها... رغم كل ما تحمله من عزة نفس وكبرياء أحس بأنها مسحورة به هي الأخرى، سمع الجميع يهمسن بكلمات الحب والإعجاب بشخصه بينما نظراته شاخصة بابتسامتها الساخرة أخذ يرقب تحركاتها كما لو أنها

بطلـــة مـــن البطلات اللاتـــي يقفن أمامـــه لمشـــاركته أدواره المتعددة

اســـتغربت لتجمع الممرضات في مـــكان واحد فوقفـــت مع إحداهن لتســـألها ماذا يحدث هنا؟ هـــل مات أحد؟

فأجابتها والإبتهاج بادٍ على وجهها: انظري هناك إنه سامر

:سامر... ومن يكون سامر هذا؟

:سامر الفنان المشهور

نظرت إلى حيث أشـــارت لها وكانت نظراتها خجلة لا تخلوا من المكر ثم التفتت إلى صديقتها وقالت لها بدون إهتمام:

:مجنونة لقد افزعتني لأنني ظننت بأن أحد المرضى قد مات

خاطبتها مندهشة : ألا يهمك وجوده هنا؟ ألم تحلمي ذات يوم برؤيته على الطبيعة انظري إليه إنه كالحلم...

فقالت لها ساخرة : وكل هذا التجمع من أجله هو ؟

لا .... لا تخبريني بأنك لست معجبةٍ به!

وبمـــاذا تجيبها تلك الفقيرة المعدومة؟ أتقـــول لها بأنها معجبة به أكثر من الجميع

أتقول بأنها لا تصدق بأنها تـــراه للمرة الأولى وعلى الطبيعة ؟ تعلم تمامـــاً بأنه في الأعالي وهي في أســـفل الســـافلين .... فقالت لها وقد فاجأها ردها

:عزيزتي نحن هنا في مستشفى وهذا المكان يعج بالمرضى وجميعهم في حاجة ماسة إلينا ، وطالما نحن هنا علينا أن ننسى كل شيء من حولنا هلا أخبرتني ما موقف المدير من هذا التجمع؟

:مجنونة .... أنت مجنونة يا سلام أخبرك عن سحره ووسامته تقولين لي المستشـــفى والمدير والمرضى عزيزتي يحق لنا أن نعبر لهذا الرجل عن إعجابنا به ليس هنا، عزيزتي عليك أن تنســـي كل شيء عدى المرضى الذين يقبعون في أســـرتهم فكري بهم وحاولي أن تشـــعري بألامهم التي تمزقهم من الأحشاء

:أنت قاسية القلب هو أيضاً تمزقه آلامه ويحتاج لمواستنا

كبلت ذراعيها فوق صدرها وسألتها ساخرةً : لماذا إن شاء الله ؟

:أمه أصيبت بالشلل لإصابتها بالجلطة الدماغية

رمقته بنظرة خاطفة لا تخلوا من العطف أحس بأنها حزنت ووقفت لحظة صمت أمام حالة مرضية مستعصية بغض النظر عن كونها أمه هو

أصبـــح ذلك الحوار يخـــز أذنيه فطلب من الجميع أن يفســـحوا له الطريـــق من أجل العبور اخترق الزحام عبر بينهم وقد رشـــقها بنظرات غاضبة حاقدة اخترقت مســـامات جســـدها نظرات غريبة هي نفسها لم تفهم ماذا عنى بها؟

خافت كثيراً من تلك النظرات بل أشـــعرتها بأنها صفعة قوية هوى بها على صدغها ركضت ندى إلى حيث اتجه لتنال شـــرف الحديث معه ولتناول شـــرف توقيعه على إحدى صورها أو حتى على صورته ،هو سمع ندى تحاور صديقتها ســـلام طالبة منها الأقتراب منه لتنال هي الأخرى شرف توقيعه إلا أنها صعقته بردها حين قالت:

:وما هو الرصيد الذي يضيفه إليّ توقيعه في هذه الحياة؟ هل ينتزعني من الفقر ؟ هل يشفي المرضى آلامهم؟

أشعره رفضها بالغيظ الشديد رغم أنه يعلم بأنها محقة أثارت الفتاة فضولـــه بل وجعلته يفكر ملياً في أمر جمهوره بماذا نفعه الجمهور، وأمه راقدة في غرفة العناية الفائقة ؟

لا بشيء فهو يعلم بأن جمهوره لم يرحمه حتى وهو في أشد حالات حزنه دائماً يجري خلفه غالباً في أوقات عصيبة دائماً يحاصره ويضيق عليه الخناق وكأنه ليس إنساناً ولا يحق له العيش بسلام ككل الناس العاديين حتى وهو في أوج آلامه تلاحقه أعين المعجبين أراد أن يصرخ من أعماقه ويبكي تمنى أن يقول لهم أن يتركوه وشأنه من قال بأن الفنان يعيش هانئاً مستقراً وهو غارق في عالم السحر والنجومية من قال بانه يعيش تلك السعادة التي يتمناها الكثيرون حين يرى هذا الحشد الكبير يحاصره كيفما تحرك ؟

حب الناس يقيده بالخوف منهم على نفســـه من الفشل أمامهم ومن خذلانهم إن أصابه مكروه ،فكر طويلاً بســـر تلك النظرات التي تبادلاها معاً هو نفسه لايدري من منهما الأكثر غروراً؟ ولكنه عاد وسأل نفسه : ولماذا تشـــعر هي بالغرور إن كان قد سبقها إلى عالم الشهرة والنجومية وهي الممرضة البســـيطة التي ســـاعدها الحظ لتعمل في ذلك المشـــفى الضخم ؟

ربما يستغرب ســـذاجة ((ندى)) ومثيلاتها لأنهن مازلن يعتقدن بأنه ليس إنساناً عادياً بل هو السحر وربما الحلم هي وحدها من كانت تفكر بأن ســـامر مثل الناس جميعاً ولد في عالمها ونشأ في كوكبها وأكل من الطبيعة نفســـها وأبتاع أشياءها الخاصة من الأســـواق نفسها ، تركت ندى غارقة في ســـذاجتها وغادرت المكان وبداخلها مازالت متحاملة على الجميع جميعهم ســـذج تسحرهم المظاهر الكاذبة وترحل بهم الشهرة إلى دنيا الخيال أيقن بأنه مســـكين محبط فأمه تموت وهو يقف عاجزاً تماماً لا يعرف كيف الســـبيل لإنقاذها مما هي فيه، كان الأحرى بالجميع أن

يخففوا عنه لا أن يضيقوا الخناق عليه ولكن هيهات فمن يسمع كل هذا؟

مبهورين أمام عظمة الشهرة وسطوتها ناسين تماماً أمر واجباتهم كبشر ،هي وحدها من كانت لاتهتم لعظمته بل إنها لاتهتم لوجود الرجال أصلاً فلم يكن يهمها إلا عملها وما يمكن أن تجنيه من نقود ليس محبةً بالمال بل رأفة بأمها وأخوتها إنه يعلم بأن الظروف القاهرة وحدها من جعلتها تجري خلف المادة لإعالة أخوتها يعلم بأنها محقة بالحقد عليه وعلى طبقته التي ينتمي إليها ،كانت ماتزال تقف مع ندى عندما حضرت ممرضة أخرى وأقتربت منه لتخبره بأن الطبيب يريد رؤيته في عيادته فسألها بلهفة وربما بخوف :

كيف أصبحت أمي ؟

إطمئن ياسيدي تخطت مرحلة الخطر ونجت من الموت بأعجوبة

سارا معاً إلى عيادة الطبيب وقبل أن يدخل العيادة التفت إلى الخلف ورمقها بذات النظرة مما جعلها تفكر ملياً بأمر تلك النظرات....لمَ كل هذا ؟

ألأنها رفضت أن تنال شرف الحديث معه؟

فقد يومها إتزانه وكاد يثور على الطبيب ويزلزل المكان

استغربت سلام كثيراً حين شاهدت سحر وهي ممرضة أخرى تقترب منها تقدم الشاي للطبيب وضيفه الوسيم وكانت كلماتها لها لا تخلو من السخرية يحق لها أن تسخر منها .... لماذا يطلب الطبيب منها أن تقدم الشاي لضيفه الوسيم وهي تعلم بأن بإمكانه رفع السماعة ليطلبه من البوفية كانت ماتزال تفكر بما يقصده الطبيب عندما عادت سحر إليها لتنقل على مسامعها ما دار بين الطبيب والفنان من حديث

المســكين عندما علم بأن الطب عجز عن مساعدة أمه ثار على الطبيب وضرب مكتبه بقبضة يده كاد يكســره وهو يطالبه بإيجاد الحل المناسب مع ذلك أخبره الطبيب بأنه لا يســتطيع أن يفعل شيئاً

فصاح : سأنقلها إلى الخارج

فرد عليــه الطبيب : أرجوك كن منطقياً فأمــك امرأة عجوز ماذا سيفعلون لها هناك

فخفض صوته وقال بحزن : وهل ستبقى أمي مشلولة طيلة حياتها ؟

فواســاه الطبيب وهو يقول: هذه إرادة الله سنعتمد الآن على المعالجة الفيزيائيــة كي تســتطيع تحريك بعض أعضائها مــن جديد ونترك الباقي على الله

وهل ستبقى هنا ؟ وماذا عن حالات الربو الحادة التي تصيبها؟؟

بل نفضل نقلهــا إلى المنزل وكلما حان وقت الجلســة مع الطبيب المعالج يمكن نقلها إلى هنا أو الطبيب يزورك في المنزل وبالنســبة لنوبات الربو علاجها في منزلها ...

فحار الفنان وأخذ ذرع الغرفة جيئةً وذهاباً ... وتساءل ... أنقلها إلى المنزل كيف؟

ومن ســيرعاها وهي المرأة التي رفضت أن تدخــل منزلها امرأة أخرى حتى وإن كانت خادمة؟

لا أســتطيع تركها في المنزل وحدهــا وأنا فنان ولــديَّ أعمالي أنا كالرحالــة كل يوم في بلد وأمي تحتاج لرعايــة كاملة أرجوك أيها الطبيب أرشــدني إلى الصواب فرأســي تكاد تنفجر

فنصحـــه الطبيب بالآتي : الحل الأول هو أن تكون لدى أمك خادمة تقوم بشؤون المنزل وما شابه

والحل الثاني : والأهم هـــو أن تكون معها ممرضة تقوم على رعايتها وتمريضها وإعطائها الأدوية في مواعيدها

اتقنت ســـحر الحوار تماماً وبطريقة تمثيلية رائعة فقالت لها ساخرةً محاولة تقليد صوت الفنان : أرجوك دكتور كن منطقياً من هي الممرضة التي ســـتقبل أن تقوم على رعاية أمي وهي المرأة المشـــلولة دماغياً ؟ فهذا كما تعلم يحتاج لرعاية ومجهوداً كبيرين

فأوجد الطبيب له الحل حين قال : الخادمة تســـاعد الممرضة وهكذا يخف الحمل عن كليهما مارأيك ؟

وهل لديك ممرضة تثق بها؟

ثم ضحكت بطريقة خلاعية مقززة وقالت : الأحمق إنه لا يعلم بأنني الممرضة المناســـبة لأمه وليس هذا فقط فـــإن اختارني لأداء ذلك الدور ســـأراه كل صباح ومساء وســـأعرف عنه كل شيء وماذا يأكل وكيف يعيش ومن يدري ربما أنـــال إعجابه ويتزوجني فأنا كما تعلمين خارقة الجمال يمكنني أن أتصور نفســـي وأنا حرم الفنان سامر وصاحبة المنزل هناك .... ما أروعني حين أحمل لقب زوجة ممثل مشهور. كانت سلام قد ملت من أحاديثها فتركتها تسرح في أحلامها الغير منطقية وغادرت لتطلب للطبيب وضيفه الشاي من البوفية ...

الضيف الذي خطف لب ســـحر فجعلها شـــاعرة دون أن تدري وليس هذا فقط بل ظنت نفسها أجمل الجميلات وأنها تستحق أن تحمل لقب الفنان واسمه عن جدارة .... ســـلام وحدها مـــن كانت تعلم إلى أين سيؤدي بها عزورها

كانـــت قد طرقت الباب منتظرة من الطبيب أن يطلب منها الدخول على حين سمعت الطبيب يقول له : ستراها حالاً

دخلت ومعها الشاي وفاجأها الطبيب بقوله : طلبت القهوة لا الشاي خجلت سلام من نفسها وقالت : سحر أخبرتني بأنك طلبت شاياً

لا عليك نهض الطبيب وأخذ منها الشـــاي وقدمه لضيفه وهو يقول لـــه : هذه هي ،كما لو أنها عرفت هدفه وأحســـت بما كان يرمي إليه ومع ذلك ظلت واقفة وهي خجلة من نظراته إليها وتمنت للحظة الفرار من ذلك الوضع الذي وضعها الطبيب فيه ثم وجدته يلتفت إلى الطبيب ليسأله : ماذا يعني أيها الطبيب ؟

ذهبت أفكارها إلى حيث لا تدري حين قال الطبيب عنها:

إنهـــا ممرضة نشـــيطة وأمينة والأكثر من هذا كلـــه هي لا تعرف التقاعس تقوم بعملها على أكمل وجه ،أتعلم لقد كانت مشروع طبيبة ولا أدري لمـــاذا إتجهت إلى العمل كممرضة، تمنـــت لو تصرخ في وجهه لتنعته بالكاذب لأنه يعلم تماماً لماذا اتجهت لدراســـة التمريض ولكنها حتى تلك اللحظـــات كانت تجهل تماماً ما يدور حولها ، نظرت إليه لتجده يتأملها بعمق وتخترق نظراته الثاقبة مســـامات جســـدها تمنت هـــي الأخرى أن تخترقه بذات النظرات إلا أنها خجلت وجبنت وماهي إلا لحظات حتى بدأت الأســـئلة تتزاحم فوق شفتيها

وهو مازال يتفحصها كتلميذة ســـتدخل قاعة الأمتحان أو كفتاة يريدهـــا زوجة.. أنقذها الطبيب من نظراتـــه الحارقة حين طلب منها الإنصراف

هرولت ســـلام مســـرعة بالخروج من العيادة فتركت بابها مفتوحاً على حين أســـندت ظهرها على الدرفة الأخرى من الباب لتأخذ نفســـاً

عميقاً بعد لأنها كانت تشعر بالاختناق وهي تقف أمامه فسمعته يسأل الطبيب : لماذا هـــي بذات ؟ مابها ألم تعجبك ؟

لا أتكلم عن الإعجاب أعرف بأنها فتاة متعجرفة مغرورة لا تســـتحق الإحترام

:تصـــور فتاة مثلها مجرد ممرضة تافهة بســـيطة ترفض محادثتي أنا سامر الفنان المشهور؟

:أرجوك ما تقوله الآن ألا يعتبر غروراً ؟

:صدقني فمعظم المشاهير يصابون بالغرور وأنت منهم

:حافظ على ألفاظك فأنت لا تعرفها إنها تثق بنفســـها فأنا استبعد تمامـــاً أن تكون مصابة بالغرور ؟ فتاة مثلهـــا لا تعرف في هذا العالم إلا عملها ثم إنها تستحق الإحترام

أحست بكلمته رنت في أذنها كالمطرقة حين قال : لا أريدها

:لا تكن عنيداً أنها الأجدر

وصرخت من أعماقها وهي لا تزال تشعر بالإهانة والذل : يرفضني أنا؟ لماذا ... ثم من قال له بأنني أوافق على العمل في منزله بصفة ممرضة؟

أصر الطبيب على إقناعـــه : أنها ممتازة وهي مجرد ممرضة يعني لن تتزوجها !

فاجأها الطبيب بقوله ذاك وســـاد بعـــد حديثهما الصمت للحظات وفكر بينه وبين نفســـه : يتزوجها؟

وهي تمتمت في أعماقها : تباً له ولطبقته التي ينتمي إليها ومع ذلك تكرر الســـؤال في داخلها تتزوجه ولكنها لم تفسح المجال لتفكيرها لأنها

تعلـــم تماماً من تكون لذلـــك ليس من حق خيالها أن يســـبح في بحر اللامعقول

طردت الفكرة من رأسها تماماً لأنه المستحيل نفسه :

تابـــع الطبيب حديثه : ســـلام تعول أمها وأخوتها الســـتة بعد رحيل والدهـــا وهي بحاجة للمـــال أكثر من غيرها وأمـــك تحتاج للرعاية والطبابة وأنا واثقٌ بأن ســـلام لن تبخل عليهـــا بعطفها وحنانها وحبها، أعرفها تماماً وهذا ما شـــجعني علـــى اختيارها هي بالذات

ماهي علاقتك بها ؟

فاجأها الطبيب برده: علاقة الأب بأبنته فكل ما هنالك هو أنني على دراية بوضعها المادي أنا وحدي من أعرف عن تضحيات التي قدمتها لعيش أخوتها بسلام

كانت تكره شـــفقته عليها وتكره أن يجعلها ممرضة لأم ذلك المغرور تمنت لو تبقى في نظره تلك الفتاة المغرورة التي يجهل عنها كل شـــيء والتي غاظته حين رفضت الحديث معه فســـمعته من جديد

يسأل الطبيب : ماذا عن سلوكها ؟

:مهذبة خجولة ولا تختلط بالاخرين يعني أن ملفها لدي نقياً نظيفاً حتى الآن والأهم من كل ما يمكن أن نقوله عنها هو أنها تهتم بالمريض كما لو أنه فرداً من أفراد أسرتها

صدقني أنها كفؤٌ لتلك المهمة وأنا بدوري ســـأمنحها إجازة مطولة وهي وحدها من تســـتطيع قطع إجازتها والعودة إلى عملها

تتعاطف معها كثيراً

:أخبرتـــك بأنها الأجدر وكانت الأولى على دفعتها لثلاث ســـنوات متتالية ولو ســـاعدتها الظروف لأصبحت اليوم طالبة مجتهدة في كلية الطب

:ولكن ماذا عن غرورها ؟

:ما أدراها من تكون ؟ ربما لا تشاهد التلفزيون أصلاً

أيعقل هذا؟

يحدث هذا في أكثر المجتمعات ..

:أوافق شرط أن تقلع عن غرورها

غضبت من قوله وتحدثت مع نفســـها : ماذا يظنني ؟أخشى أنه يظن بأني من أشياءه الخاصة لكي يشترط على مايريده هو ؟

:لك ما تريد هل أناديها الآن ؟

ابتعدت عن الباب متظاهرة بأنهـــا كانت خارج المكان على حين قرع جرس الهاتف لدى السكرتيرة القابعة خلف مكتبها والتي كانت منشغلة بتصفح جريدة الصباح فلم تلحظ وقوف.سلام أمام باب عيادة الطبيب حملت الســـماعة فقالت : نعم دكتور .... حاضر كما تريد ...

تركـــت الفتاة مكتبها واتجهت نحو العيادة وهـــي فتاة مهذبة أنيقة هادئـــة وعلى قدر من الجمال ،كانت ســـلام تراقب تحركاتها أخرجت من حقيبتها مرأتها الصغيرة وألقت نظرة على وجهها ثم عبثت بشعرها قليلاً كي تحســـن من مظهرها الخارجي ،وبعد ذلك حاولت كي ثوبها بكفيها ، أجل فالجلوس المتواصل خلف المكتب ثنى أطرافه تماماً ضحكت سلام ســـاخرةً منها... يا إلهي حتى هي تريد أن تنال إعجابه ؟

رغم أن الطبيب أخبرها مباشرةً عبر الهاتف بأنه يريد سلام ومع ذلك أصرت على الدخول إليه بنفسها لا لشيء فقد كي تلق على الفنان القابع على الكرسي قبالة مكتب الطبيب نظرة تأخذها إلى حيث تريد

فكرت سلام بينها وبين نفسها : أمعقول أن تعرض الفتاة نفسها للإهانة لكي تنال شرف النظر إليه ؟ ساذجة كالأخرين.

كان الباب ما يزال مفتوحاً عندما لمحتها تبادل الفنان نظرة هي وحدها من كانت تعلم ماذا تخفي خلفها بادلها الرجل بنظرة أجمل منها بإنحناءة بسيطة من رأسه ثم التفتت إلى الطبيب تسأله عن سبب استدعائه لسلام .

قبل أن يجيبها الطبيب عن سؤالها إلتفت سامر إليه وسأله : أخبرني دكتور هل تعمدت توظيف الفتيات الجميلات في مشفاك ؟

نظراتك ثاقبة كيف لا وأنت فنان والفنانين عادة يعشقون الجمال؟

على فكرة سلام وحدها هي من تعمدت توظيفها عن طريق أحد الزملاء في المهنة اكتشفت فيما بعد بأنها استحقت المهنة وعن جدارة

شعرت الفتاة بالغيظ فخرجت من العيادة ورغم غيظها مما قيل عن سلام كانت تشعر با لانبهار يبدو أن الرجل أعجبها وخطف لب قلبها بنظرته تلك ،اقتربت من سلام وهي تتمايل برفق وميوعة وقالت وهي تشعر بالسحر والأنفة:

:سلام لقد نظر إليَّ وحياني تحية لا تخلو من الإعجاب بي

لم تحدثها بل ظلت تنظر إليها .... إنها سعيدة فقط لأنه حياها وهذا ماجعل الشهوات تتراقص من بين عينيها .... مسحورة تماماً بنظراته الجذابة وليس هذا فقط بل أعلنت غيرتها من سلام ....

مـــاذا كانت ســـتفعل لو نهض وصافحهـــا أو حتى قبـــل يدها ؟ ....

أيقظها من شرودها صوت الممرضة عندما قالت لها : لماذا أنت بالذات عجباً .. لم تحسدها وهي ما تزال تجهل مصيرها ؟

تساءلت من جديد : ما الذي أعجبه بك ؟

فردت عليها : تتحدثين عني ؟

أجل ... ادخلي الطبيب يريدك في الداخل

أشعرتها غيرة زميلتها بالغرور فلم تقل لها ما يبرد الغلة التي اعتلجت صدرهـــا بل تركتها واتجهت إلى عيادة الطبيب.. قرعت الباب ثم دخلت وقبل أن تغلق الباب التفتت لتنظر إلى زميلتها التي كادت تحرق أعصابها من الغيرة

أغلقت الباب وقالت : طلبتني دكتور ؟

أجل أجلسي أريد محادثتك ...

لدي مناوبة دكتور...

قلت لك أجلسي ...

اقتربت من الكرسي الذي يقابل كرسيه ونظرت إلى ساقيه الممدودتين وفكرت : كيف تجلس وهو يعيق عليها مسألة جلوسها على الكرسي ؟

أجل فالكرســـيين متقاربين إلى حدٍ ما... تنبه ســـامر فجأة نظر إلى ســـاقيه اللتين تعرقلان عليها جلوسها فأعتدل في جلسته ووضع ركبته اليمنى فوق اليســـرى حينها وجدت نفســـها تقترب منه لتجلس قبالته بهدوء دون تردد

نظرت إليه وقد شعرت بأن الدم قد تجمد في عروقها وأحست فجأة بأن الدنيا تدور من حولها أرادت بشتى السبل التخلص مما إعتراها لتهرب من نظراته التي أخذت تلاحقها منذ دخولها العيادة استطاعت الهروب فعلاً عندما التفتت إلى الطبيب تسأله : لم تخبرني بماذا تريدني ؟

لم يجيبها وظلت نظرات الأخر تلاحقها كيفما تلفتت لم تكن تدري إن كانت تلك النظرات نظرات إعجاب بشخصها أم نظرات حقد

وتسألت : يعجب بها ؟ ومن هي لكي تنال اعجابه ؟

تمنت للحظة أن تطلب منه عدم النظر إليها لأنها لم تحترم نظراته على الإطلاق وهو ماذا يفعل ؟ هذا ما أخذ يدور في خاطره منذ رآها....

يفكر بالإنتقام منها لأنها لم تعره إهتمامها كالاخريات أم انها ستتنظر أن يرد إليها إهانتها وعلى طريقته ؟

حدثها الطبيب : تعلمين بأن أم سامر تقيم في مشفانا منذ فترة وقد أقمت بنفسك على رعايتها

:شفاها الله أيها الطبيب فأنا لم أقم إلا بواجبي

كنت نعم الممرضة إلا أن الطب عندما يعجز عن معالجة المريض يفضل له أن يعود إلى منزله ليعيش عمره المتبقي له بين أهله وأقرانه

لذلك وبالاجماع أنا الفريق الطبي قررنا أن تخرج المريضة إلى

منزلها وأنت ستخرجين معها ...

نظرت إلى سامر وقد تلاقت عيونهما فشعر فجأة بأنها تملك عينان لا تنطقان إلا بالحب وهي أيضاً أحست بأن عيناه تبعثان ألقاً ناطقاً بالحب نفسه

قالت وقد هربت من نظراته التي أشعلتها دون شك ...

أعرف الموضوع كاملاً إلا أنني أرفض الخروج معها

فاجأه ردها ورمقها بنظرة متسائلة : إلى متى يستمر هذا الغرور ؟

فقـــال الطبيب : لا يحق لك الرفض تحتـــاج أمه إلى الرعاية طوال فترة مرضها

وإلى متى يستمر هذا ؟

هذا في علم الغيب

وماذا عن عملي هنا ؟

ستبقين موظفة لدينا وتعودين إلى هنا ما أن تنهي مهمتك

رسمت هالات التشاؤم على وجهها وصاحت : ولماذا أنا بالذات ؟

سامر اختارك أنت ..

نظرت إلى سامر وســـامر نظر إلى الطبيب ... كلاهما لعنا كذبته ومـــع ذلك ظلا على صمتهما ... عليها أن ترفض هذا ما فكرت به ... تريد أن تكون أقوى من ظروفها وحاجتها الماســـة للمال .. فكرت للحظة بينها وبين نفسها :

لم لاتنسى أمر التضحيات ولو لفترة من الزمن لتعيش بكرامتها

يحترمها على الأقـــل وقالتها بحزم : اختر غيري فأنا لا أصلح لهذه المهمة أعرف بأن ســـحر تتحرق شـــوقاً لتكون هي مكاني يمكنها أن تقوم بالمهمة فعلى الأقل هي معجبة به

نظر إليها بغضب بدا كما لو أنه أعلن رضاءه عنها هذه المرة فتحول غضبه إلى إبتسامة ساحرة كما لو أن غرورها الداخلي أعجبه شعر بلذه خفية تسري في عروقه أصبح يعرف بانها لا تقل إعجاباً به عن الأخريات أعجبته تلك النظرة الخائفة والقلقة بحيث جعلته يتخلى عن غروره وعجرفيته رسم فوق ثغره إبتسامته الجميلة وخاطبها :

سلام أرجوك فأنا أجدك الأصلح لتلك المهمة

خاطبته وتلك كانت المرة الأولى التي تخاطبه من خلالها وجهاً لوجه ودون خوف فأخذ يراقب شفتيها وانفعالاتها ونظراتها وتقاطيع وجهها الرقيق ... إنها تسحره فكل شيء فيها يدعوه لمراقبتها وإلتهامها ولو من خلال النظرات

:سيدي لا أستطيع الإقامة في منزلك فأنا لا أتخيل نفسي أبتعد عن منزلي وأهلي ..

ستزوريهم باستمرار عندما تجدي بأن أمي لم تعد بحاجة لك أثناء قيلولتها بعد الظهر يمكنك زيارة منزلك

:ياسيدي مالا تعرفه هو أن أمك شفاها الله تحتاج للرعاية الكاملة ووجود الممرضة معها طوال الوقت يخفف عنها بعض آلامها فكيف تريدني أن أسمح لنفسي أن أتركها وهي تحتاجني

:لهذا أريدك معها وثقي بأنني لن أنسى فضلك ماحييت

عرفت تماماً ما يرمي إليه صمتت لبرهة ثم شعرت بينها وبين نفسها بالضعف أمام ذلك الإغراء الذي قدمه لها

هو يعلم بأنها في حاجة ماسة إلى تلك الإضافة التي من الممكن أن يستدرها عليها

نظرت إلى الطبيب فأشـــارلها بالقبول ثم التفتت إلى ســـامر لتضع شروطها

:ســـيدي لا أريدك أن تدخل المنزل إلا اذا فتحـــت لك .. ولا تدخل غرفـــة أمك إلا إن كنت أنا خارجها ... ثم قالت له مبررة شـــرطيها :

ســـيدي أنت تعلم بأنني فتاة ريفية المنشأ وعشت وترعرعت في حي له عاداته وتقاليده وللناس ألسن ؟

أعجبه ذلك الحرص الذي حصنت نفسها به فطمئنها حين قال :

لا تخشي شيئاً ستكونين بعهد الله أختي ثم أن امرأة أخرى ستشاركك المنزل

شـــعرت بالغيظ وتغير لون وجهها حين احتقن الدم فيه بعد سماعها تلك الجملة ...

امرأة أخرى ستشاركها المنزل

وهو ماذا فعل ؟ كما لو أنـــه أحس بما يجري في أعماقها وبماعانته حين سمعت تلك الجملة... أنقذها من التفكير بحقيقة من تكون تلك المرأة. وألقى على مسامعها ما برد الغلة التي اعتلجت وجهها :

أنت الممرضة وهناك خادمة ستقوم بمساعدتك وبإدارة شؤون المنزل

أخفت عنهما ابتســـامة كادت أن تفضحها سرعان ما شعرت بالأمان وعادت إلى طبيعتها ولكنها ظلت حائرة بسؤالها : لماذا تشعر بالغضب من وجود إمرأة أخرى

ماذا هو بالنســـبة لها ؟ أتراها خشيت أن تكون تلك المرأة زوجته وإن كان الأمر كذلك ما شأنها هي ؟

هذا ماسأله لنفسه أيضاً : أمعقول أنها تحبه ؟

أرادت للحظة أن ينتزع تلك الأوهام من رأسه فهي تعرف من يكون هو ومن تكون هي إنها فتاة عادية وإن كانت جميلة ممرضة فقيرة بسيطة تسكن في حي الفقراء وهو الذي يعيش في عالم السحر والرخاء .... إنه لا يشبهها ولايمت لعالمها بصلة تعلمت منذ الصغر ألا تنظر أبعد من أنفها فهي تعرف قدر نفسها وعالمها وتعرف بأنها لا تستحق مجرد التفكير فيه ....

أرادت أن تنسى كل مادار في خلدها فألتفتت إليه تسأله : متى يمكنني البدء في عملي الجديد ؟

:عندما تتصلين بأمك وتقومي بأخبارها

:ولكنني لا أملك هاتفاً

:هذه مشكلة .... ولكن لا بأس أعطني عنوان المنزل وأنا سأذهب إليها كي أخبرها وأنت ستذهبين مع أمي عندما يتم نقلها إلى المنزل

فكرت كثيراً قبل أن تعطيه عنوانها ومع ذلك لامت نفسها كيف فعلت هذا وهي لا تريده أن يعلم أين تعيش ؟ أمجنونة هي؟ ... هذا ما فكرت به ، أيقن من خلال نظراتها الحائرة بأنها غير راغبة بذلك إلا أنه أصر على الذهاب كما لو أنه يريد أن يعرف سبب هذا الغرور ،لم تكن تحب أن يهبط ذلك الرجل إلى المستوى الذي تعيشه وأن يدخل حيها الفقير ويطرق باب منزلها القديم لم تكن تحب أن يحدث أمها المعدمة وجهاً لوجه ويشاهد أخوتها بأجسادهم الهذيلة ويجلس على تلك الأريكة التي تسميها أريكة الضيافة ،تلك الأريكة لا يجلس عليها إلا الفقراء أمثالها أكتشفت فجأة بأنها لا تفخر بعائلتها مطلقاً بل إنها خجلة من وضعها ولم تكن كذلك

مـــن قبل ... مالذي حدث لها ولم هذا الإنقـــلاب المفاجئ على واقعها.

لقنتـــه العنوان حتى إنـــه لم يكتبه بل حفظه بذاكرته كما لو أنه يعرفه مســـبقاً الجميع خرجوا لوداعه .... لم لا إنه ســـامر الذي نال إعجاب الجماهـــير والذي أصبح الحلم حين جعلهـــا تبدو خجولة أمام ســـطوة وســـامته ،كانت ما تزال تراقبه يتوارى عن الأنظار خافت عليه من نظرات الجميع النظرات التي كانت تنم عن شهوة كل واحدة منهن بأفتراســـه حتى من خلال النظـــرات ،الكل يحســـدها على نيل ذلك الشـــرف العظيم وتمنت كل واحدة منهن أن تحتل مكانها ،وحدها هي من حظيت بذلك الشـــرف وحدها من ستراه وترى منزله الجميل وربما تســـاعد الخادمة بأعداد طعامه وربما تصنع قهوته الصباحية بنفســـها وترتب غرفته وتنال شـــرف لمس أغطية ســـريره الحريرية وستائر نوافذ منزله وحتى مرآته وحدها من ستنال شرف النظر إليه والكلام معه كل صباح ومســـاء ،ولكن كيف تحسدها النساء على نيل ذلك الشرف وقد كانت تلعن إختياره لهـــا وتلعن الظروف التي أجبرتها على قبول العمل في منزله.

كيـــف لا وقد كانت تريد دائمـــاً أن ينظر إليها كما ينظر الجميع إلى نساء المحترمات ؟ ينظر إليها نظرة فخر واعتزاز كونها تعمل لتعيل أخوتها وهي نفســـها تحتاج إلى من يعيلها في الحياة أحســـت بأن منزله ســـيخنقها ويخنق أحلامها ويحطم آمالها ويقلل من شـــأنها وقد أرادته من أعماقها أن يعجب بها ولـــو من بعيد دون أن يجعلها ممرضة أمه ها هو يخبر أوراقه بأنه كان ســـعيداً كونها أصبحت قريبة منه وليس هذا فقط بل أنها صنعت من نفســـها خادمته ،هـــذه كانت البداية بينهما ويالها من بداية

حي البؤساء

ليس هذا عنوان لرواية فيكتور هيغو الشـــهيرة إنما هو عنوان لواقعها ولواقع حيهـــا الفقير ففي ذلك الواقع المرير بل في حيها الفقير حطت ســـيارته الجميلة فترجل منها بعد تردد .... كان مشـــمئزاً من كل ما يـــراه أمامه ومن تلك الحـــارات الضيقة المتداخلة التي تشـــعر المرء بالاختناق من القذارات التي للأسف ملأت الشوارع والأزقة بسبب إهمال أهالـــي الحي وجهات أخرى غير مهتمة إطلاقاً لســـلامة الحي ونظافته ،الجميـــع يجهلون ما يحدث في الأحياء الفقيرة كما لو أنهم خلقوا من عد، أجل يحدث هذا ليصبـــح ذلك الحي أكثر حقارة وقذارة .

ســـار بخطوات خائفة وراح يبحث بنظراته عن منزلها خاف إن إستمر بالسير في الشارع المؤدي إلى منزلها أن يتعرقل وتنزلق قدمه ويسقط عل الأرض بســـبب صعود أرضية الشارع وهبوطها ،لم تكن تلك الرسالة التي طلبت منه سلام أن ينقلها إلى أمها بل أراد أن يشاهد منزلها الذي تعيش فيـــه والطبقة التي تنتمي إليها ربما أراد أن يدرس واقعها جيداً كي يرد إليهـــا الصاع صاعين لأنها رفضت محادثته ظناً منه بأنها تحتقره ولكنه تساءل : لماذا كل هذا التحامل عليها وقد اعجبه غرورها وجعلها تكبر في نظره فهي لم تكن كالاخريات ساذجات وتبهرهن المظاهر الكاذبة كانت الأعقل بين الجميع .... إذاً لماذا كل هذا الأصرار على معرفة من تكون ؟

بينما يفكر بينه وبين نفســـه حطت به قدميه أمام باب منزلها توقف هنيهـــة وتأمل المكان قبل أن يطرق باب المنـــزل، ثم طرق الباب بطريقة ناعمة مهذبة وما هي إلا لحظات قليلة حتى فتحت أمها الباب ،رغم أن أمها مازالت شـــابة إلا أن وجهها الشاحب أضاف عشرة سنوات إلى عمرها الحقيقي فشحوبه كان شبيهاً بشـــحوب الموتى سنوات الشقاء والتعب الـــتي حملتها على عاتقها صنعت منها إمـــرأة عجوز وآثار الفقر رسمت تحت عينيها هالتين من الســـواد سألته بعد تأملها لوجهه :

:سيدي بماذا أستطيع أن أخدمك ؟

:عفواً أنت أم المرضة سلام ؟

:أجل أنا أمها ماذا تريد منها ؟

نظر داخل المنزل وسألها : عفواً أنتحدث من هنا ؟

أفســـحت له الطريق ودعته للدخول إلى المنزل ثم سبقته مسرعة إلى صدر المنزل وخطفت من على الأريكة بعض الملابس القديمة التي تخص أولادها وقالت بخجل وهي تنفض الغبار عن الأريكة : اجلس هنا سيدي

حدث ماتوقعه تماماً بحركة منها دفعت باب الغرفة ورمت ماكانت تحملـــه داخلها ثم قالت محاولة تبرير الموقف : الأطفال دائماً يخلعون ملابســـهم ثم يرمون بها عشوائياً هنا وهناك ،مازالت تقف حائرة خائفة من هذا الضيف الذي يزور منزلها للمرة الأولى بينما أخذ الفرصة ليجيل البصر في أنحـــاء منزلها وبداخله كان يلعن حضوره إليه أجل هو محق فكل ركن فيه يثير إشمئزازه

سألته على الفور : ماذا تشرب ؟

نظـــر إليها وتأملها بإشمئزاز وفكر بينه وبين نفســـه : امرأة يائســـة محطمـــة معدومة وتحتاج إلى الترميم أكثر منزلها نفســـه ماذا يمكنها أن تقدم له ؟

الأغنيـــاء دائماً ينســـون بأن الفقـــراء قادرين على القيـــام بواجب الضيافـــة أكثر منهم أحياناً لأن منازلهم مليئة بالخير والعطاء والحب والحنان.... ينســـون بأنهم بشر

كان يمكنهـــا أن تقدم له قهوة أو شـــاي أو حتى (تمـــر هندي) لماذا يســـتغرب كيفية قيامها بالواجب اتجاهه ... نسي أمر سؤالها وبادرها بســـؤال أخر : كيف تعيشون هنا ؟

:وأين يمكن أن نعيش يا سيدي إنه منزلنا ولا نملك سواه ؟

:ولكنه مظلم والرطوبة تأكل أركانه

:ألفنا الظلام وعايشنا الرطوبة منذ سنوات طويلة فأصبح من الصعب علينا ترك المنزل إنه جزء منا يا سيدي

:ألا تمرضون ؟

:كل الناس يمرضون أخبرني هل أنت مســـؤول الصحة؟ أو ربما أنت موظف البلدية ؟ ولكن غير معقول لم أرك هناك تعلم لقد أخبروني بأن منزلي هذا وبسبب الرطوبة ربما يسقط علينا جميعاً

:ماذا تنتظرين؟ ألا تخافين على أولادك ؟

:سيدي لقد سمعنا هذا الكلام منذ فترة وقبل وفاة زوجي ولم يسقط حتى الأن حتى وأن ســـقط علينا ومتنا جميعاً تحت انقاضه المهترئة من يهتـــم لأمر وجودنا أحياء ؟ لا أحد مطلقاً فنحن في نظر الناس المترفين

حثالة هذا المجتمع ووجودنا في الحياة وباء ينقل إليهم العدوى بل نحن الجراثيم التي تخز عقولهم

أعجب بطريقة حديثها وفكـــر ...متحدثة جيدة كأبنتها تماما .. دافع عن حقها في الحياة وثار عليها لكي تســـتيقظ من غفلتها وتعي ما يحدث أمامها

:بل أنتم بشر مثلهم ومثلي ويحق لكم العيش كالأخرين

تأملته واخترقت مسامات جسده وقالت :

:لابد أنك منهـــم فبذلتك التي ترتديها ثمنهـــا يكفينا طعاماً لمدة شهر ؟

نظر إلى نفسه واحتقر الهيئة التي قدم بها إلى منزلها.. منزلها الذي يســـتحق الرثاء شعر بالإحراج وخجل من نفسه وتمنى لو يخلعها ليثبت لها بأنه مثلها مجرد إنســـان أجل فهو إن تعرى من ملابسه تلك وارتدى الثياب التي تليق بذلك الحي لعرفت بأنه لا يختلف عنها كثيراً الثياب لا تصنـــع رجالاً ولا تبني قصوراً و الملابس لا تحول الصالح إلى طالح ولا تصنع من الفقير غني وهناك الكثير من الناس الذين يرتدون ملابســـا لا تليـــق بهم ومع ذلك لا تخفي ثيابهم عيوبهم الباطنية ... ســـألته من جديد : ألست منهم ؟

يا سيدتي ....

وقاطعته حين ضحكت ســـاخرة من قول الكلمة وقالت : سيدتك ؟!

يا إلهي فأنا طوال حياتي الماضية لم ينادن أحداً بهذه الكلمة

ســـيدتي أنت تستحقين الإحترام لأنك ربيت ابنتك على المثل العليا والأخـــلاق النبيلة مما جعلها تمتاز عن غيرها من الفتيات

لاتقل لي بأنك جئت تخطبها ؟

هبطت عليه تلك الجملة كالصاعقة وتخيل الأمر بينه وبين نفسه ثم حاول استطراد الفكرة تماماً من رأسه ونظر إليها ثم قال لها بكلمات متلعثمة ومن باب المجاملة :

يشـــرفني ذلك ولكني لم آتِ لهذا الغرض بل جئت أخبرك بأن ســـلام ومنذ ســـاعة أصبحت تعمل لدي

وصرخت أمها بغضب ودخل الشـــيطان إلى رأسها وسألته بهلع : تعمل ماذا ؟

لا تجزعي سيدتي إنها تعمل ممرضة . .أمي خرجت من المشفى اليوم وهي مصابة بالشلل الدماغي ووجودها في المنزل يحتاج إلى ممرضة تقوم علـــى رعايتها وإعطائها الدواء بموعده وابنتك هي أفضل ممرضة تقوم بتلك المهمة

هدأت أمها وأســـتكانت وقالت : مســـكينة أمك إلى متى يستمرهذا ؟

نترك مسألة الوقت لله عز وجل

أنت محق فهو وحده يفعل ما يشاء ولكن ماذا عن عائلتك ؟

:لا عائلة لي غير أمي توفي والدي عندما كنت صغيراً وأختي الوحيدة تزوجت خارج القطر

:لم لم تأتي لتخبرني هذا بنفسها ؟

:أمـــي تحتاج لوجودها إلى جانبها بعد خروجها من المشـــفى لذلك أرسلتني بالنيابة عنها

:وماذا عن عملها في المستشفى ؟

:مازال قائماً ....

:مالذي يجعلني أضمن بأن ابنتي ستكون بخير ؟

:إطمئني أنا لا أمكث في المنزل طوال الوقت في عملي وفي أكثر الأحيان أكون خارج المدينة وابنتك ستكون صاحبة المنزل أثناء غيابي.. معها امرأة أخرى إنها الخادمة

نظرت إليه مطولاً وسألت نفسها : أين رأته من قبل هذه الساعة ؟

لم تسعفها الذاكرة فتجرأت وسألته : سيدي هلا أخبرتني أين رأيتك قبل الأن ؟

أعمل ممثلاً ومن الطبيعي جداً أن تشاهدينني ككل الناس على الشاشة

نهض سامر وأراد الاستئذان ليغادر منزلها إلا أنها أستوقفته

وقالت له : كيف تغادر منزلنا دون أن تشرب شيئاً ؟

:هذا ليس بيننا يا سيدتي

:أنت محق فمنزلنا ليس بمقامك بالتالي لا تستطيع معدتك التي اعتادت على البذح أن تتقبل مشروباتنا..

:أعدك بأني سأفعلها في المرة القادمة

رغم أنها لم تصدق ماقاله إلا أنها قالتها له : تشرفنا متى جئت

اقترب من الباب الخارجي وقبل أن يخرج تذكر بأن من واجبه ان يساعد أمها البائسة فأخرج من جيبه كل ما يملكه من المال وقدمه لها قائلاً :

إجرة سلام لشهرين مقدماً

أخذت أمها المبلغ مندهشـــة ! يحق لها أن تندهش كيف لا وقد قدم لها مالاً ابنتها مازالت لا تســـتحقه لأنها لم تبدأ العمل بعد

فوجـــئ بصوت صرير الباب عادت بـــه الذكريات إلى زمن بعيد يكاد يكون منســـياً صوتاً يعود إلى زمن الأجـــداد وإذا بفتاة صغيرة تخرج من الغرفـــة وقد كان مظهرها يثير الشـــفقة وتبعها باقي إخوتها فنظر إلى الجميع ثم أراد الهروب بعيداً عن ذلك المشهد حين أغمض عينيه وتمنى بينه وبين نفســـه ألا يرى منهم أحدا

خرج من الغرفة بل ومن المنزل ورأســـه تكاد تتفجر وهو يسأل نفسه : أمعقول ؟ أما زال يوجد في هذا العالم فقراً وجوعاً وأناســـا هذيلين ؟

استيقظ ضميره الذي نام طويلاً أحس بما تعانيه الطبقة التي تنتمي إليها ســـلام وهو الذي أراد الأنتقام منها ،سار مسرعاً نحو سيارته ففتح بابها ودلف إليها وما هي إلا لحظات قليلة حتى أدار محركها فأنطلقت بـــه بعيداً عن ذلك المكان وقد حمل في أعماقـــه كرهاً فظيعاً لطبقته التي ينتمي إليها ،تغير تماماً وقد قرر بينه وبين نفســـه أن يتحمل كافة نفقات تلك العائلة المنكوبة ،في البداية لام نفسه كثيراً لأنه قدم لأمها المال فهو يعرف عزة نفســـها وكبريائها ،ترى كيف ستتقبل الأمر وماذا ستظن به؟ حتماً ســـتظن بأنه اشتراها وعائلتها ،أشياء كثيرة فكر بها وخاف كثيراً من النتائج التي سيجرها له ذلك الصنيع ،وصل إلى منزله وذلك المشهد المأســـاوي مازال جاثماً على صدره كان يشعر بالاختناق فراح يحل ربطة عنقه بصعوبة

شعرت به عند دخوله المنزل على الفور بينما هو مازال ساهياً عن كل شيء سار نحو الأريكة متثاقلاً وهبط فوقها كمن تخلت عنه إرادته كانت

تلك الأريكة تضم خلفها أريكة أخرى اتخذتها سلام لنفسها ،حين هبط فوق أريكته نهضت سلام من على أريكتها خائفة فزعة ،اقتربت منه وبين يديها تحمل أوراقاً كانت تقرأها وقفت وهو ينظر إليها فمرت من خلال صمتها لحظة تأمل من سلام لما احتواه الصالون.

صمم مهندس الديكور المكان بطريقة ساحرة رائعة ملفتة للنظر كيف لا وهذا المنزل لفنان ظنت لوهلة بأنه سينهال عليها بكلمات التوبيخ والشتائم لأنها تحمل أوراقه وهو أيضاً ظن بأنها ستنهال عليه بسيل من تلك الكلمات لأنه لم يف بوعده ودخل المنزل دون استئذان هو لم يفعل وهي لم تفعل كلاهما نسيا أمر العتاب فحال الاثنين لم تكن جيدة نظرت إليه وقد ساءها المظهر الذي عاد به إلى منزله .... اقتربت منه أكثر وسألته : أعدت سيدي ؟

نظر إليها واعتدل في جلسته وقال لها : ماذا ترين أمامك ؟

ليس هذا مقصدي .. لقد عدت على غير ما كنت عليه في المستشفى

نظر في يدها وسألها : ماذا تحملين ؟

تنبهت على أنها تحمل أوراقه الخاصة فقالت له مبررة :

:سيدي لقد نامت السيدة الكبيرة فأصابني الضجر لذلك سمحت لنفسي بالأقتراب من مكتبتك وتناولت منها هذه الأوراق لكي أقرأ وأقتل الضجر الذي اعتراني

أخذ منها الأوراق وهو يقول : إنه السيناريو الجديد هل أخذت فكرة عنه؟

:بل قرأت بعضه

:ما رأيك بالنص ؟

:القصة جيدة نوعاً ما إلا أنها تحتاج لبعض الرتوش

أثـــارت فضوله وربما تطاولها على قداســـة النص فقال لها : ورأيك بالدور الرئيسي ؟

:تريد الحق بدون غضب ؟

:بالطبع لن أغضب فنحن الفنانين نتقبل النقد مهما كانت قسوته

:لن يكون نقدي قاسياً ولكن إسمح لي أن أتجرأ وأخوض معك الحديث بشـــأن الدور الرئيســـي وبالعمل ككل ،من وجهة نظري كل الأدوار في هذا النص أخذت دور البطولة حتى المربية نفسها ،إن دورها جداً هام فكل الشخصيات تدور وتعيش في نفس المكان،والمربية تحاور الجميع... تخفف مأســـاة هذا وتساعد ذاك وتسدي النصح لأكثرالشخصيات تقوم برعاية الصغار كأمهم وبدور المعلمة للأبنة الكبرى .... أشـــياء كثيرة صنعها دور المربية والمزارع كذلك الأمر

شده حديثها كثيراً وأيقن تماماً بأنها ضليعة في أمور الفن وقد كان يظنها ســـاذجة لا تفقه عن أمور الحياة إلا الحي الذي نشـــأت فيه .... شك بينه وبين نفســـه بإنتمائها لتلك الطبقة وعيشها في ذلك المنزل ...تختلف تماماً عن عائلتها كما لو أنها نشـــأت في عالمه هو ،حتى أمها تجيد فن الحديث وتعرف قدر نفســـها ،عندما أحس بأن سلام بارعة في أمور النقد وأشياء أخرى سألها : ألك أراء أخرى تطرحينها بشأن النص ؟

:أتسخر مني ؟

:معاذ الله أنا أطلب رأيك فحسب

سيدي الموضوع من الناحية الفنية رائع رغم أن القصة نصف واقعية حقاً ؟ وماذا عن النصف الأخر ؟

:ينقصه بعض التعديل

طلب منها أن تجلس لكي يتجاذب معها أطراف الحديث

عندما استقرت بالجلوس إلى جانبه سألها من جديد :

:ماالذي يحتاج للتعديل ؟

أشياء كثيرة لا يمكن أن تحدث في مجتمعنا

:أريد مثالاً على هذا

:لا بـــد أن الكاتب متحرراً بعض الشـــيء.. أو أنه يســـير خلف أوهام مخيلته الواسعة ليصنع نصاً تلفزيونياً مثيراً وناجحاً بتصوره أخبرني يا ســـيدي فلو كانت لديك ابنة ما تزال في المرحلة الثانوية ماذا تفعل إن اكتشـــفت فجأة بأنها مغرمة بأستاذها ؟ كيف يكون موقفك وكيف تواجه الأمر وأنت الرجل الشـــرقي الذي نشـــأ و ترعرع على مثل ومبادئ معينة تحكينا نحن كشرقيين ؟

:أثـــور عليها وأمنعهـــا من التورط بذلك الحـــب وأنصحها بمتابعة دراســـتها لأنها الأهم خاصـــة إن كانت صغيرة

:النص يقول غير هذا، فالرجل أي البطل عندما يعلم بأن ابنته تحب يفخر بها وبأخذها بالأحضان ويتأملها للحظات ليقول لها : لقد كبرت يا ابنتي وأصبحت تحبين

:يا سلام إنه مجرد تمثيل

:إذاً كيف تقنعني أنا كمشاهدة بذلك المشهد المبتذل ؟ يا سيدي في عالمنا هذا المشـــهد مرفوض تماما والحب ممنوعاً سراً وعلانية وإلا تكون العواقب وخيمة

:أنـــت محقة في بعض الأمور ولكنني لا أظن بأن علانية الحب ممنوعة في المجتمع ، لا يوجد أب يسمح لأبنته بعلانية الحب فنحن مازلنا شرقيين ثـــم أن هذه الأمور في مجتمعنا ممنوعة إلا أن كانت مشـــروعة وضمن الحدود العائلية تلك الحرية لم تقنعني مطلقاً،هذا يحدث في مجتمعي أنا وضمن عالمي

:ومن قال هذا ؟ إذا أنتم تخاطبون زمرة معينة من الناس؟؟تخاطبون الطبقة التي تنتمون إليها. . .ياســـيدي لا تنســـى بأن المسلسل سيتابعه الناس كافة في جميع مســـتوياتهم وحتى يمكـــن أن يروج خارج القطر وهناك أيضا مجتمعات وطبقات متوســـطة تتابع المسلسل لذلك عليك مخاطبة كل الفئات ألست معي. . ؟

الحياة التي نعيشها والمنطق يقولان هذا.

إذاً أنتـــم الفنانـــين تخاطبون فئة معينة من النـــاس وهي الفئة التي تنتمـــون إليها فأين نصيبي أنا ونصيب المجتمع الأخر ؟ ألا نســـتحق أن يخاطبنا المجتمع ولـــو من خلال الفن ؟

يا إلهي حتى في الفن تنســـون أمرنا وعالمنا وتصهرون حقوقنا اعلموا بأننا بشـــر ونستحق الإحترام أنا شخصياً أحب طبقتي التي نشأت فيها .

بالطبع أنتم تســـتحقون الإحترام ثم إنـــك اقنعتيني بوجهة نظرك سنتحدث في الأمر قبل بدء التصوير من يدري ربما ننقذ ما يمكن إنقاذه ؟

انتقلت فجأة مـــن الحديث عن الفن والأدب إلى الســـؤال عن أمها :

أخبرني سيدي هل ذهبت إلى منزلي ورأيت أمي ؟

أجـــل وصدقاً تمنيت لو إنني لم أفعل ،يحق لـــك أن تقول هذا : فلا أمي ولا منزلنا يليقان بك وأنت الفنان المشـــهور ،أنا أيضاً لم أكن أحب

ذهابك إلى هناك لأن منزلنا مليئاً بالجراثيم أخشـــى أنك خفت على نفسك من العدوى

:تتحدثين عن أمك

:لم لا ؟ أليســـت أمي ... يا ســـيدي لقد علمتنا الحياة أشياء كثيرة ورغم ذلك كنا في السابق نعشق الحياة وكان منزلنا بالنسبة لنا جنة غناء تجمعنا في ظل والدنا الحنون الذي لم يشـــعرنا بالنقص ذات يوم

:تعشقون الحياة في ذلك المنزل ؟ يا إلهي أمعقول أنكم مازلتم هناك والرطوبة تملأ الحي والمنزل ؟ أمك شاحبة شحوب الموتى وأخوتك هذيلين ووجوههم ضيقة طويلة من ســـوء التغذية وثيابهم الرثة تثير الأشمئزاز

:أعرف بأنك شـــعرت بالاشمئزاز من مناظرهم فأنت لا تعرف ماذا فعـــل بنا الدهر بعد رحيل والدي ؟

:لا أتحدث عما فعله بكم الدهر ولا عن رحيل والدك أســـألك كيف تعيشـــون هناك ثم أخبريني كيف تتأقلمين مـــع وضعك وأنت غاية في الجمـــال والروعة وتحملين في جعبتك أشـــياء كثـــيرة وأهمها أنك ممرضة ناجحة وكنت مشـــروع طبيبة

:أشـــكرك على الإطـــراء ولكن لا تنســـى بأنه عالمي وهـــم أهلي أنا أعرف بـــأن الفقراء يوصفـــون بالذكاء والشـــكيمة وســـرعة البديهة ليس في أكثـــر الأحيان فكل ماذكرته لكي يتطـــور يحتاج على الدعم المعنوي والمـــادي ربما أنت محق فلو كان والدي مايـــزال حياً ولو كان يملك المال لأصبحـــت طبيبة وحققت كل أهـــدافي كان فعل ماضي واللـــو لم تخـــرج والدي من قـــبره ،أيقنت بـــأن الفقـــراء لا يحق لهم أن يحلمـــوا ولا يحق لهم رســـم مخططـــات لأهدافهم حتـــى أن الطب يحتـــاج إلى مبالغ كبـــيرة ... كبيرة جداً أكبر من أحلامي نفســـها

إستمرت في حديثها وهو يراقبها بينما تسرد إلى مسامعه قصة حلمها الذي رسمه لها والدها

رسم لي والدي مخططات كثيرة وتنبئ لي بمستقبل رائع ليته لم يفعل وتنبأ لنفسه وحافظ على صمته كي يبقى لنا

:تعترضين على مشيئة الله ...

ربما .. المهم لم يعد كل هذا مهماً بالنسبة لي وتخطيت المحنة وأصبحت أكف عن التأفف من وضعي والتذمر من الحال الذينحن عليه

كيف تكفين عن ذلك وعائلتك تنطبق عليها قصة البؤساء

بالفعل إنها قصة تحكينا نحن

ماذا كان يعمل أبوك ؟

:لم يكن لصاً لقد كان مزارعاً وفياً لعمله ولرب عمله سحقاً له لقد بخل علينا حتى بالتعويض الذي كان يستحقه أبي

:كان يمكنك مقاضاته

:أنت لا تعرفه مقاضاته تحتاج إلى محامي والمحامي لن يأخذ قضيتنا مجاناً ونحن كما تعلم لسنا حملاً لنفقات القضية ثم إنني أعلم بأن النتائج لن تكون مضمونة بالنسبة لنا سلفاً فذلك الرجل ليس سهلاً على الإطلاق يمكنه تدمير عائلتي وربما سمعتنا

:كيف كانت حياتكم ؟

:كنا سعداء فرغم فقر والدي وقلة حيلته لم يكن يبخل علينا بشيء وقد أصر على أن أتابع دراستي كان منزلنا مملوءاً بالفرح والبهجة

ينبض بالحياة والحب والسعادة أثناء وجوده معنا لم نكن نشعر بالنقص أنا بالذات كنت أسعد فتاة في حينا كله... ولكن لماذا تريد أن تعيد الماضي إلى ذاكرتي وأنا التي قررت النسيان؟ لماذا هذا الظلم ؟

:أسف لم أقصد تذكيرك بالذي مضى لكنني أردت الإطلاع فقط

:إنسى مارأيته وأخبرني ماذا قالت أمي بشأن عملي هنا ؟

:لم تمانع ثم إنني أعطيتها أتعابك لشهرين مقدماً

:لماذا تعطيها المال وأنا لم أبدأ العمل بعد ؟ هذه إهانة

:إنه حقك وحق أخوتك

:عليك أن تعلم بأنني أكره أن المح الشفقة في وجوه الأخرين إننا راضين تماماً عن حياتنا

:لم أقصد الإهانة كنت أظنها تحتاج المبلغ ...

:كنت أنوي الذهاب إليها غدا لأرسم البسمة على وجهها وأقدم لها راتبي الشهري فأختي سارة مريضة جداً وقد عجزت أمي عن معالجتها في المشافي الحكومية إن باعهم طويل وفي المشافي الخاصة لن تستطيع تغطية كل النفقات

:مماذا تعاني أختك ؟

قال الطبيب بأنها تعاني من مشكلة في الرئة البلغم يغطيها، أقلق على حياتها كثيراً ، عندما أراها تعاني من نوبات سعال حادة لا أظنها إلا مفارقة الحياة أخاف كثيرا عليها وأنا على يقين بأن المشكلة أكبر بكثير من البلغم

:اطمئني ستشفى بإذن الله

تلفت سامر من حوله فسالته : أتبحث عن شيء ؟

:أبحث عن الخادمة فأنا لم أرها حتى الأن

لا أدري فربما لم تحضر بعد أخبرني أهي شابة ؟

فاجأه سؤالها فوارت وجهها عنه كما لو أنها ندمت على طرح السؤال

أعجبه ذلك اللؤم الذي تحمله في عينيها فكر قليلاً قبل أن يجيبها على سؤالها :

:أجل إنها شابة تخطت الأربعين من العمربسنوات هي أرملة

أضحكتها إجابته الناعمة فأيقن تماماً بأن سؤالها إن دل على شيء فهو يدل على غيرتها عليه ...

:سيدي هل أساعدك بشيء ؟

تغيرت ملامحه وأصبح ينظر إليها بطريقة مختلفة وغاضبة ،ربما لا يريدها أن تصنع من نفسها خادمته يعلم بأنها لم تخلق لكي تكون إلا ممرضة ولكنه أراد أن يتذوق قهوتها ... فقال لها : كنت أريد فنجان قهوة

ها هو الطفل الملل الذي كان يعتمد على أمه بكل صغيرة وكبيرة لا يستطيع أن يصنع لنفسه فنجان قهوة وجدت نفسها مجبرة على أن تصنع من نفسها خادمته دون أن تضع وزناً لكرامتها وهيبتها أمامه فقالت له : أنا سأصنع لك القهوة

لم يرفض بل رحب بالفكرة طالما أن الخادمة لم تصل بعد

:حسناً سألقي نظرة على أمي ريثما تنهي صنع القهوة

غادر المكان فبقيت تراقبه حتى غيبه الباب وجدت نفسها وحيدة في الصالون الرحب الذي ملأته اللوحات الفنية المختلفة والصور

الفوتوغرافية والتحف الفخمة و الأثاث الأنيق تأملت البيانو الذي أخذ لنفسه المكان الأرحب في الصالون فبدا الصالون كلوحة فنية رائعة الصنع ثم سارت متثاقلة إلى المطبخ كما لو أنها شعرت بالندم على العرض الذي قدمته له .

يجلس إلى جانبها بحزن حمل يدها المطروحة على السرير وقبلها بإجلال يخاطبها والدموع تترقرق من عينيه ... سامحيني أمي لأنني تركتك وحيدة طوال الوقت كنت أنسى واجبي تجاهك كأبن باراً بأمه كدت أنسى بأني ابنك وأنك أمي وهذا المنزل منزلي كنت ضيفاً فيه طوال الوقت ليس الذنب ذنبي أمي لقد عشقت عملي إلى حد الجنون وأصبحت أجد في السفر الملاذ الوحيد لي في الحياة بل أصبح من أجمل هواياتي ابتعدت عنك وعن محيطي وعالمي ،أمي أرجوك لاتلعنيني أنا بل إلعني الشهرة التي أخذتني إلى عالمها المغري وبنت لي في آفاقها العالية قصوراً وهمية أعلم بأنها قابلة للسقوط في أي وقت ولكنها تساعدني للصعود أكثر فأكثر إلى المجد سحقاً للشهرة يا أمي لأنها اخذتني منك أنا وحيدك مابك لا تردين عليَّ ،انهضي يا أماه وخاطبيني ... أحتاجك وأحتاج لنصائحك ورضاءك عني.

بكى ووضع وجهه بين كتفيه تحول بلحظات إلى طفل صغير يحن إلى حضن أمه وحنانها ...الآن أيقن بانه وجدها ولكن متى؟ بعد فوات الأوان ... ليتها تشعر به وهو إلى جانبها ولكن هيهات لأن تشعر بذلك

سرقته سلام من الجو الذي وضع نفسه فيه حين دخلت الغرفة ومعها القهوة نظر إليها ومسح دموعه التي هطلت من مقلتيه وطلب منها أن تجلس ،اقتربت منه وأعطته فنجانه ثم جلست على الكرسي المقابل للسرير،أصبحا يراقبانها معا وهي تغط في سبات نوم عميق ينظر إلى وجهها الملائكي وإلى قلبها الذي ينبض بصعوبة وصدرها الذي يعلوا

ويهبط كادا يسمعا حشرجة أنفاسها كلاهما يعلمان بأنها تنتظر الموت ومع ذلك مازالت حية ومازال ابنها سعيداً لوجود ممرضة إلى جانبها بل إلى جانبهما معـــاً وجودها يصبره ويخفف عنه وطأة أحزانه

هذا كان الفصل الثالث في حياته بعد ظهورها على خط مســـتقبله كانـــت النظرة الأولى بل النظرات الأولى أكثر من رائعة رغم إختلاطها بالحزن والآلام ،ســـامر لا يريد أن يخفي شـــيء عن أوراقه فتلك الفتاة التي تجلس إلى جوار أمه لم تكن تحلم أو أن تفكر مجرد تفكير بأن تنال شرف دخولها إلى منزله ، هو نفسه لم يكن يتصور بأنه يستطيع أن يشرب فنجان قهوة تصنعه هي، يعلم بـــأن وجودها غير مجرى حياته وهي التي لم تعتد أن ترسم لنفســـها أحلام صعبة التحقيق فحلم لقاءها به كان المستحيل نفســـه هي من تكون ؟ هي نفسها لم تعد تدري لأنها أصبحت تنتمي إلى طبقة أخرى تحمد الله لأنها لم تقم بتأســـيس تلك المهمة أو التخطيط لها من قبل القدر هو الذي رسم لها ذلك الدور الصعب فهي فاشلة في أمور الرسم ولا تجيد فن الفبركة أو الهندسة .... القدر ... القدر وحده من قام برسم ذلك الدور وقدم لها الشخصية التي تستحقها ولكنها مازالت تســـأل نفســـها: هل هي بارعة بإداء ذلك الدور ؟ ولكن كيف تتقن ذلك الفن وهي التي نشـــأت في حي البؤساء ؟

إنها خائفة محبطـــة وتائهة تماماً عن واقعها وتخشـــى أنها ما تزال جاهلة في أمور الفن وهو ما ذا يفعل؟ لا يملك إلا أن يراقب دون أن يضع في باله نجاح تلك الفتاة في مهامها

حي البؤساء «

ليس هذا عنوان لرواية فيكتور هيغو الشـــهيرة إنما هو عنوان لواقعها ولواقع حيهـــا الفقير ففي ذلك الواقع المرير بل في حيها الفقير حطت ســـيارته الجميلة فترجل منها بعد تردد .... كان مشـــمئزاً من كل

ما يـــراه أمامه ومن تلك الحـــارات الضيقة المتداخلة التي تشـــعر المرء بالاختناق من القذارات التي للأسف ملأت الشوارع والأزقة بسبب إهمال أهالـــي الحي وجهات أخرى غير مهتمة إطلاقاً لســـلامة الحي ونظافته ،الجميـــع يجهلون ما يحدث في الأحياء الفقيرة كما لو أنهم خلقوا من عد، أجل يحدث هذا ليصبـــح ذلك الحي أكثر حقارة وقذارة .

ســـار بخطوات خائفة وراح يبحث بنظراته عن منزلها خاف إن إستمر بالسير في الشارع المؤدي إلى منزلها أن يتعرقل وتنزلق قدمه ويسقط عل الأرض بســـبب صعود أرضية الشارع وهبوطها ،لم تكن تلك الرسالة التي طلبت منه سلام أن ينقلها إلى أمها بل أراد أن يشاهد منزلها الذي تعيش فيـــه والطبقة التي تنتمي إليها ربما أراد أن يدرس واقعها جيداً كي يرد إليهـــا الصاع صاعين لأنها رفضت محادثته ظناً منه بأنها تحتقره ولكنه تساءل : لماذا كل هذا التحامل عليها وقد اعجبه غرورها وجعلها تكبر في نظره فهي لم تكن كالاخريات ساذجات وتبهرهن المظاهر الكاذبة كانت الأعقل بين الجميع .... إذاً لماذا كل هذا الأصرار على معرفة من تكون ؟

بينما يفكر بينه وبين نفســـه حطت به قدميه أمام باب منزلها توقف هنيهـــة وتأمل المكان قبل أن يطرق باب المنـــزل، ثم طرق الباب بطريقة ناعمة مهذبة وما هي إلا لحظات قليلة حتى فتحت أمها الباب ،رغم أن أمها مازالت شـــابة إلا أن وجهها الشاحب أضاف عشرة سنوات إلى عمرها الحقيقي فشحوبه كان شبيهاً بشـــحوب الموتى سنوات الشقاء والتعب الـــتي حملتها على عاتقها صنعت منها إمـــرأة عجوز وآثار الفقر رسمت تحت عينيها هالتين من الســـواد سألته بعد تأملها لوجهه :

:سيدي بماذا أستطيع أن أخدمك ؟

:عفواً أنت أم الممرضة سلام ؟

:أجل أنا أمها ماذا تريد منها ؟

نظر داخل المنزل وسألها : عفواً أنتحدث من هنا ؟

أفســـحت له الطريق ودعته للدخول إلى المنزل ثم سبقته مسرعة إلى صدر المنزل وخطفت من على الأريكة بعض الملابس القديمة التي تخص أولادها وقالت بخجل وهي تنفض الغبار عن الأريكة : اجلس هنا سيدي

حدث ماتوقعه تماماً بحركة منها دفعت باب الغرفة ورمت ماكانت تحملـــه داخلها ثم قالت محاولة تبرير الموقف : الأطفال دائماً يخلعون ملابســـهم ثم يرمون بها عشوائياً هنا وهناك ،مازالت تقف حائرة خائفة من هذا الضيف الذي يزور منزلها للمرة الأولى بينما أخذ الفرصة ليجيل البصر في أنحـــاء منزلها وبداخله كان يلعن حضوره إليه أجل هو محق فكل ركن فيه يثير إشمئزازه

سألته على الفور : ماذا تشرب ؟

نظـــر إليها وتأملها بإشمئزاز وفكر بينه وبين نفســـه : امرأة يائســـة محطمـــة معدومة وتحتاج إلى الترميم أكثر منزلها نفســـه ماذا يمكنها أن تقدم له ؟

الأغنياء دائماً ينسون بأن الفقراء قادرين على القيام بواجب الضيافة أكثـــر منهم أحياناً لأن منازلهم مليئة بالخير والعطاء والحب والحنان .... ينسون بأنهم بشر

كان يمكنهـــا أن تقدم له قهوة أو شـــاي أو حتى (تمـــر هندي) لماذا يســـتغرب كيفية قيامها بالواجب اتجاهه ... نسي أمر سؤالها وبادرها بســـؤال أخر : كيف تعيشون هنا ؟

:وأين يمكن أن نعيش يا سيدي إنه منزلنا ولا نملك سواه ؟

:ولكنه مظلم والرطوبة تأكل أركانه

:ألفنا الظلام وعايشنا الرطوبة منذ سنوات طويلة فأصبح من الصعب علينا ترك المنزل إنه جزء منا يا سيدي

:ألا تمرضون ؟

:كل الناس يمرضون أخبرني هل أنت مسـؤول الصحة؟ أو ربما أنت موظف البلدية ؟ ولكن غير معقول لم أرك هناك تعلم لقد أخبروني بأن منزلي هذا وبسبب الرطوبة ربما يسقط علينا جميعاً

:ماذا تنتظرين؟ ألا تخافين على أولادك ؟

:سيدي لقد سمعنا هذا الكلام منذ فترة وقبل وفاة زوجي ولم يسقط حتى الأن حتى وأن سـقط علينا ومتنا جميعاً تحت انقاضه المهترئة من يهتـم لأمر وجودنا أحياء ؟ لا أحد مطلقاً فنحن في نظر الناس المترفين حثالة هذا المجتمع ووجودنا في الحياة وباء ينقل إليهم العدوى بل نحن الجراثيم التي تخز عقولهم

أعجب بطريقة حديثها وفكـر ...متحدثة جيدة كأبنتها تماما .. دافع عن حقها في الحياة وثار عليها لكي تسـتيقظ من غفلتها وتعي ما يحدث أمامها

:بل أنتم بشر مثلهم ومثلي ويحق لكم العيش كالأخرين

تأملته واخترقت مسامات جسده وقالت :

:لابد أنك منهم فبذلتك التي ترتديها ثمنها يكفينا طعاماً لمدة شهر ؟

نظر إلى نفسه واحتقر الهيئة التي قدم بها إلى منزلها.. منزلها الذي يستحق الرثاء شعر بالإحراج وخجل من نفسه وتمنى لو يخلعها ليثبت لها

بأنه مثلها مجرد إنسان أجل فهو إن تعرى من ملابسه تلك وارتدى الثياب التي تليق بذلك الحي لعرفت بأنه لا يختلف عنها كثيراً الثياب لا تصنع رجالاً ولا تبني قصوراً و الملابس لا تحول الصالح إلى طالح ولا تصنع من الفقير غني وهناك الكثير من الناس الذين يرتدون ملابساً لا تليق بهم ومع ذلك لا تخفي ثيابهم عيوبهم الباطنية . . . سألته من جديد : ألست منهم ؟

يا سيدتي ....

وقاطعته حين ضحكت ساخرة من قول الكلمة وقالت : سيدتك ؟!

يا إلهي فأنا طوال حياتي الماضية لم ينادن أحداً بهذه الكلمة

سيدتي أنت تستحقين الإحترام لأنك ربيت ابنتك على المثل العليا والأخلاق النبيلة مما جعلها تمتاز عن غيرها من الفتيات

لاتقل لي بأنك جئت تخطبها ؟

هبطت عليه تلك الجملة كالصاعقة وتخيل الأمر بينه وبين نفسه ثم حاول استطراد الفكرة تماماً من رأسه ونظر إليها ثم قال لها بكلمات متلعثمة ومن باب المجاملة :

يشرفني ذلك ولكني لم آتِ لهذا الغرض بل جئت أخبرك بأن سلام ومنذ ساعة أصبحت تعمل لدي

وصرخت أمها بغضب ودخل الشيطان إلى رأسها وسألته بهلع: تعمل ماذا ؟

لا تجزعي سيدتي إنها تعمل ممرضة . .أمي خرجت من المشفى اليوم وهي مصابة بالشلل الدماغي ووجودها في المنزل يحتاج إلى ممرضة تقوم على رعايتها وإعطائها الدواء بموعده وابنتك هي أفضل ممرضة تقوم بتلك المهمة

هدأت أمها وأســـتكانت وقالت : مســـكينة أمك إلى متى يستمرهذا ؟

نترك مسألة الوقت لله عز وجل

أنت محق فهو وحده يفعل ما يشاء ولكن ماذا عن عائلتك ؟

:لا عائلة لي غير أمي توفي والدي عندما كنت صغيراً وأختي الوحيدة تزوجت خارج القطر

:لم لم تأتي لتخبرني هذا بنفسها ؟

:أمـــي تحتاج لوجودها إلى جانبها بعد خروجها من المشـــفى لذلك أرسلتني بالنيابة عنها

:وماذا عن عملها في المستشفى ؟

:مازال قائماً ....

:مالذي يجعلني أضمن بأن ابنتي ستكون بخير ؟

:إطمئني أنا لا أمكث في المنزل طوال الوقت في عملي وفي أكثر الأحيان أكون خارج المدينة وابنتك ســـتكون صاحبة المنزل أثناء غيابي.. معها امرأة أخرى إنها الخادمة

نظرت إليه مطولاً وســـألت نفســـها : أين رأته من قبل هذه الساعة ؟

لم تسعفها الذاكرة فتجرأت وسألته : سيدي هلا أخبرتني أين رأيتك قبل الأن ؟

أعمل ممثلاً ومـــن الطبيعي جداً أن تشـــاهدينني ككل الناس على الشاشة

نهض سامر وأراد الاستئذان ليغادر منزلها إلا أنها أستوقفته

وقالت له : كيف تغادر منزلنا دون أن تشرب شيئاً ؟

:هذا ليس بيننا يا سيدتي

:أنت محق فمنزلنا ليس بمقامك بالتالي لا تستطيع معدتك التي اعتادت على البذخ أن تتقبل مشروباتنا..

:أعدك بأني سأفعلها في المرة القادمة

رغم أنها لم تصدق ماقاله إلا أنها قالتها له : تشرفنا متى جئت

اقترب من الباب الخارجي وقبل أن يخرج تذكر بأن من واجبه ان يساعد أمها البائسة فأخرج من جيبه كل ما يملكه من المال وقدمه لها قائلاً :

إجرة سلام لشهرين مقدماً

أخذت أمها المبلغ مندهشة ! يحق لها أن تندهش كيف لا وقد قدم لها مالاً ابنتها مازالت لا تستحقه لأنها لم تبدأ العمل بعد

فوجئ بصوت صرير الباب عادت به الذكريات إلى زمن بعيد يكاد يكون منسياً صوتاً يعود إلى زمن الأجداد وإذا بفتاة صغيرة تخرج من الغرفة وقد كان مظهرها يثير الشفقة وتبعها باقي إخوتها فنظر إلى الجميع ثم أراد الهروب بعيداً عن ذلك المشهد حين أغمض عينيه وتمنى بينه وبين نفسه ألا يرى منهم أحدا

خرج من الغرفة بل ومن المنزل ورأسه تكاد تتفجر وهو يسأل نفسه : أمعقول ؟ أما زال يوجد في هذا العالم فقراً وجوعاً وأناساً هذيلين ؟

استيقظ ضميره الذي نام طويلاً أحس بما تعانيه الطبقة التي تنتمي إليها سلام وهو الذي أراد الأنتقام منها ،سار مسرعاً نحو سيارته

ففتح بابهـــا ودلف إليها وما هي إلا لحظات قليلـــة حتى أدار محركها فأنطلقت به بعيداً عـــن ذلك المكان وقد حمل في أعماقه كرهاً فظيعاً لطبقته التي ينتمي إليها ،تغير تماماً وقد قرر بينه وبين نفسه أن يتحمل كافة نفقات تلك العائلة المنكوبة ،في البداية لام نفسه كثيراً لأنه قدم لأمها المال فهو يعرف عزة نفســـها وكبريائها ،ترى كيف ستتقبل الأمر وماذا ســـتظن به ؟ حتماً ستظن بأنه اشـــتراها وعائلتها ،أشياء كثيرة فكر بها وخاف كثيراً من النتائج التي ســـيجرها له ذلك الصنيع ،وصل إلى منزله وذلك المشهد المأســـاوي مازال جاثماً على صدره كان يشعر بالاختناق فراح يحل ربطة عنقه بصعوبة

شعرت به عند دخوله المنزل على الفور بينما هو مازال ساهياً عن كل شيء سار نحو الأريكة متثاقلاً وهبط فوقها كمن تخلت عنه إرادته كانت تلك الأريكة تضم خلفها أريكة أخرى اتخذتها سلام لنفسها ،حين هبط فوق أريكته نهضت سلام من على أريكتها خائفة فزعة ،اقتربت منه وبين يديها تحمل أوراقاً كانت تقرأها وقفت وهو ينظر إليها فمرت من خلال صمتها لحظة تأمل من سلام لما احتواه الصالون.

صمم مهندس الديكور المكان بطريقة ســـاحرة رائعـــة ملفتة للنظر كيـــف لا وهذا المنزل لفنـــان ظنت لوهلة بأنه ســـينهال عليها بكلمات التوبيـــخ والشـــتائم لأنها تحمل أوراقـــه وهو أيضاً ظن بأنها ســـتنهال عليه بســـيل من تلـــك الكلمات لأنـــه لم يف بوعده ودخـــل المنزل دون اســـتئذان هـــو لم يفعـــل وهـــي لم تفعل كلاهما نســـيا أمـــر العتاب فحـــال الاثنين لم تكن جيـــدة نظرت إليـــه وقد ســـاءها المظهر الذي عاد بـــه إلى منزله .... اقتربت منه أكثر وســـألته : أعدت ســـيدي ؟

نظر إليها واعتدل في جلسته وقال لها : ماذا ترين أمامك ؟

ليس هذا مقصدي .. لقد عدت على غير ما كنت عليه في المستشفى

نظر في يدها وسألها : ماذا تحملين ؟

تنبهت على أنها تحمل أوراقه الخاصة فقالت له مبررة :

:سيدي لقد نامت السيدة الكبيرة فأصابني الضجر لذلك سمحت لنفسي بالأقتراب من مكتبتك وتناولت منها هذه الأوراق لكي أقرأ وأقتل الضجر الذي اعتراني

أخذ منها الأوراق وهو يقول : إنه السيناريو الجديد هل أخذت فكرة عنه ؟

:بل قرأت بعضه

:ما رأيك بالنص ؟

:القصة جيدة نوعاً ما إلا أنها تحتاج لبعض الرتوش

أثارت فضوله وربما تطاولها على قداسة النص فقال لها : ورأيك بالدور الرئيسي ؟

:تريد الحق بدون غضب ؟

:بالطبع لن أغضب فنحن الفنانين نتقبل النقد مهما كانت قسوته

:لن يكون نقدي قاسياً ولكن إسمح لي أن أتجرأ وأخوض معك الحديث بشأن الدور الرئيسي وبالعمل ككل ،من وجهة نظري كل الأدوار في هذا النص أخذت دور البطولة حتى المربية نفسها ،إن دورها جداً هام فكل الشخصيات تدور وتعيش في نفس المكان،والمربية تحاور الجميع ... تخفف مأساة هذا وتساعد ذاك وتسدي النصح لأكثرالشخصيات تقوم برعاية الصغار كأمهم وبدور المعلمة للأبنة

الكبرى .... أشـــياء كثـــيرة صنعها دور المربية والمـــزارع كذلك الأمر

شده حديثها كثيراً وأيقن تماماً بأنها ضليعة في أمور الفن وقد كان يظنها ســـاذجة لا تفقه عن أمور الحياة إلا الحي الذي نشـــأت فيه .... شك بينه وبين نفسه بإنتمائها لتلك الطبقة وعيشها في ذلك المنزل... تختلف تماماً عن عائلتها كما لو أنها نشأت في عالمه هو ،حتى أمها تجيد فن الحديث وتعرف قدر نفســـها ،عندما أحس بأن ســـلام بارعة في أمور النقد وأشـــياء أخرى ســـألها : ألك أراء أخرى تطرحينها بشأن النص ؟

:أتسخر مني ؟

:معاذ الله أنا أطلب رأيك فحسب

سيدي الموضوع من الناحية الفنية رائع رغم أن القصة نصف واقعية

حقاً ؟ وماذا عن النصف الأخر ؟

:ينقصه بعض التعديل

طلب منها أن تجلس لكي يتجاذب معها أطراف الحديث

عندما استقرت بالجلوس إلى جانبه سألها من جديد :

:ماالذي يحتاج للتعديل ؟

أشياء كثيرة لا يمكن أن تحدث في مجتمعنا

:أريد مثالاً على هذا

:لا بـــد أن الكاتب متحرراً بعض الشـــيء.. أو أنه يســـير خلف أوهام مخيلته الواسعة ليصنع نصاً تلفزيونياً مثيراً وناجحاً بتصوره أخبرني يا ســـيدي فلو كانت لديك ابنة ما تزال في المرحلة الثانوية ماذا تفعل إن اكتشـــفت فجأة بأنها مغرمة بأستاذها ؟ كيف يكون موقفك وكيف

تواجه الأمر وأنت الرجل الشـــرقي الذي نشـــأ و ترعرع على مثل ومبادئ معينة تحكينا نحن كشرقيين ؟

:أثـــور عليها وأمنعهـــا من التورط بذلك الحـــب وأنصحها بمتابعة دراســـتها لأنها الأهم خاصـــة إن كانت صغيرة

:النص يقول غير هذا، فالرجل أي البطل عندما يعلم بأن ابنته تحب يفخر بها وبأخذها بالأحضان ويتأملها للحظات ليقول لها : لقد كبرت يا ابنتي وأصبحت تحبين

:يا سلام إنه مجرد تمثيل

:إذاً كيف تقنعني أنا كمشاهدة بذلك المشهد المبتذل ؟ يا سيدي في عالمنا هذا المشـــهد مرفوض تماما والحب ممنوعاً سراً وعلانية وإلا تكون العواقب وخيمة

:أنـــت محقة في بعض الأمور ولكنني لا أظن بأن علانية الحب ممنوعة في المجتمع ، لا يوجد أب يسمح لأبنته بعلانية الحب فنحن مازلنا شرقيين ثـــم أن هذه الأمور في مجتمعنا ممنوعة إلا أن كانت مشـــروعة وضمن الحدود العائلية تلك الحرية لم تقنعني مطلقاً،هذا يحدث في مجتمعي أنا وضمن عالمي

:ومن قال هذا ؟ إذا أنتم تخاطبون زمرة معينة من الناس؟؟تخاطبون الطبقة التي تنتمون إليها. . .ياســـيدي لا تنســـى بأن المسلسل سيتابعه الناس كافة في جميع مســـتوياتهم وحتى يمكـــن أن يروج خارج القطر وهناك أيضا مجتمعات وطبقات متوســـطة تتابع المسلسل لذلك عليك مخاطبة كل الفئات ألست معي. . ؟

الحياة التي نعيشها والمنطق يقولان هذا.

إذاً أنتـــم الفنانـــين تخاطبون فئة معينة من النـــاس وهي الفئة التي تنتمـــون إليها فأين نصيبي أنا ونصيب المجتمع الأخر ؟ ألا نســـتحق أن يخاطبنا المجتمع ولـــو من خلال الفن ؟

يا إلهي حتى في الفن تنســـون أمرنا وعالمنا وتصهرون حقوقنا اعلموا بأننا بشـــر ونستحق الإحترام أنا شخصياً أحب طبقتي التي نشأت فيها .

بالطبع أنتم تســـتحقون الإحترام ثم إنـــك اقنعتيني بوجهة نظرك سنتحدث في الأمر قبل بدء التصوير من يدري ربما ننقذ ما يمكن إنقاذه ؟

انتقلت فجأة مـــن الحديث عن الفن والأدب إلى الســـؤال عن أمها :

أخبرني سيدي هل ذهبت إلى منزلي ورأيت أمي ؟

أجـــل وصدقاً تمنيت لو إنني لم أفعل ،يحق لـــك أن تقول هذا : فلا أمي ولا منزلنا يليقان بك وأنت الفنان المشـــهور ،أنا أيضاً لم أكن أحب ذهابك إلى هناك لأن منزلنا مليئاً بالجراثيم أخشـــى أنك خفت على نفسك من العدوى

:تتحدثين عن أمك

:لم لا ؟ أليســـت أمي ... يا ســـيدي لقد علمتنا الحياة أشياء كثيرة ورغم ذلك كنا في السابق نعشق الحياة وكان منزلنا بالنسبة لنا جنة غناء تجمعنا في ظل والدنا الحنون الذي لم يشـــعرنا بالنقص ذات يوم

:تعشقون الحياة في ذلك المنزل ؟ يا إلهي أمعقول أنكم مازلتم هناك والرطوبة تملأ الحي والمنزل ؟ أمك شـــاحبة شـــحوب الموتى وأخوتك هذيلين ووجوههم ضيقة طويلة من ســـوء التغذيـــة وثيابهم الرثة تثير الأشمئزاز

:أعرف بأنك شـــعرت بالاشمئزاز من مناظرهم فأنت لا تعرف ماذا فعـــل بنا الدهر بعد رحيل والدي ؟

:لا أتحدث عما فعله بكم الدهر ولا عن رحيل والدك أســـألك كيف تعيشـــون هناك ثم أخبريني كيف تتأقلمين مـــع وضعك وأنت غاية في الجمـــال والروعة وتحملين في جعبتك أشـــياء كثـــيرة وأهمها أنك ممرضة ناجحة وكنت مشـــروع طبيبة

:أشـــكرك على الإطراء ولكن لا تنسى بأنه عالمي وهم أهلي أنا أعرف بأن الفقراء يوصفون بالذكاء والشكيمة وسرعة البديهة ليس في أكثر الأحيان فكل ماذكرته لكي يتطور يحتاج على الدعم المعنوي والمادي ربما أنت محق فلو كان والـــدي مايزال حياً ولو كان يملك المال لأصبحت طبيبـــة وحققت كل أهـــدافي كان فعل ماضي واللـــو لم تخرج والدي من قبره ،أيقنت بأن الفقراء لا يحق لهم أن يحلموا ولا يحق لهم رســـم مخططات لأهدافهم حتى أن الطب يحتاج إلى مبالغ كبيرة ... كبيرة جداً أكبر من أحلامي نفسها

إستمرت في حديثها وهو يراقبها بينما تسرد إلى مسامعه قصة حلمها الذي رسمه لها والدها

رســـم لي والدي مخططات كثيرة وتنبئ لي بمســـتقبل رائع ليته لم يفعل وتنبأ لنفســـه وحافظ علـــى صمته كي يبقى لنا

:تعترضين على مشيئة الله ...

ربما .. المهـــم لم يعد كل هذا مهماً بالنســـبة لي وتخطيت المحنة وأصبحت أكف عن التأفف من وضعي والتذمر من الحال الذينحن عليه

كيف تكفين عن ذلك وعائلتك تنطبق عليها قصة البؤساء

بالفعل إنها قصة تحكينا نحن

ماذا كان يعمل أبوك ؟

:لم يكن لصاً لقد كان مزارعاً وفياً لعمله ولرب عمله ســـحقاً له لقد بخل علينا حتى بالتعويض الذي كان يستحقه أبي

:كان يمكنك مقاضاته

:أنت لا تعرفه مقاضاته تحتاج إلى محامي والمحامي لن يأخذ قضيتنا مجاناً ونحن كما تعلم لســـنا حملاً لنفقـــات القضية ثم إنني أعلم بأن النتائج لن تكون مضمونة بالنســـبة لنا سلفاً فذلك الرجل ليس سهلاً على الإطلاق يمكنه تدمير عائلتي وربما سمعتنا

:كيف كانت حياتكم ؟

:كنا سعداء فرغم فقر والدي وقلة حيلته لم يكن يبخل علينا بشيء وقـــد أصر على أن أتابع دراســـتي كان منزلنا مملـــوءاً بالفرح والبهجة ينبض بالحياة والحب والسعادة أثناء وجوده معنا لم نكن نشعر بالنقص أنا بالذات كنت أســـعد فتاة في حينـــا كله... ولكن لماذا تريد أن تعيد الماضي إلى ذاكرتي وأنا التي قررت النســـيان؟ لماذا هذا الظلم ؟

:أســـف لم أقصد تذكيرك بالذي مضى لكنـــني أردت الإطلاع فقط

:إنسى مارأيته وأخبرني ماذا قالت أمي بشأن عملي هنا ؟

:لم تمانع ثم إنني أعطيتها أتعابك لشهرين مقدماً

:لماذا تعطيها المال وأنا لم أبدأ العمل بعد ؟ هذه إهانة

:إنه حقك وحق أخوتك

:عليـــك أن تعلم بأنني أكره أن المح الشـــفقة في وجوه الأخرين إننا راضين تماماً عن حياتنا

:لم أقصد الإهانة كنت أظنها تحتاج المبلغ ...

:كنت أنوي الذهاب إليها غدا لأرســـم البسمة على وجهها وأقدم لها راتبي الشـــهري فأختي ســـارة مريضة جداً وقد عجزت أمي عن معالجتها في المشـــافي الحكومية إن باعهم طويل وفي المشافي الخاصة لن تستطيع تغطية كل النفقات

:مماذا تعاني أختك ؟

قال الطبيب بأنها تعاني من مشـــكلة في الرئـــة البلغم يغطيها، أقلق على حياتها كثيراً ، عندما أراها تعاني من نوبات ســـعال حادة لا أظنها إلا مفارقة الحياة أخاف كثيرا عليها وأنا على يقين بأن المشـــكلة أكبر بكثير من البلغم

:اطمئني ستشفى بإذن الله

تلفت سامر من حوله فسالته : أتبحث عن شيء ؟

:أبحث عن الخادمة فأنا لم أرها حتى الأن

لا أدري فربما لم تحضر بعد أخبرني أهي شابة ؟

فاجأه سؤالها فوارت وجهها عنه كما لو أنها ندمت على طرح السؤال

أعجبـــه ذلك اللؤم الذي تحمله في عينيها فكر قليلاً قبل أن يجيبها على سؤالها :

:أجل إنها شابة تخطت الأربعين من العمربسنوات هي أرملة

أضحكتها إجابته الناعمة فأيقن تماماً بأن سؤالها إن دل على شيء فهو يدل على غيرتها عليه ...

:سيدي هل أساعدك بشيء ؟

تغيرت ملامحه وأصبح ينظر إليها بطريقة مختلفة وغاضبة ،ربما لا يريدها أن تصنع من نفسها خادمته يعلم بأنها لم تخلق لكي تكون إلا ممرضة ولكنه أراد أن يتذوق قهوتها ... فقال لها : كنت أريد فنجان قهوة

ها هو الطفل الملل الذي كان يعتمد على أمه بكل صغيرة وكبيرة لا يستطيع أن يصنع لنفسه فنجان قهوة وجدت نفسها مجبرة على أن تصنع من نفسها خادمته دون أن تضع وزناً لكرامتها وهيبتها أمامه فقالت له : أنا سأصنع لك القهوة

لم يرفض بل رحب بالفكرة طالما أن الخادمة لم تصل بعد

:حسناً سألقي نظرة على أمي ريثما تنهي صنع القهوة

غادر المكان فبقيت تراقبه حتى غيبه الباب وجدت نفسها وحيدة في الصالون الرحب الذي ملأته اللوحات الفنية المختلفة والصور الفوتوغرافية والتحف الفخمة و الأثاث الأنيق تأملت البيانو الذي أخذ لنفسه المكان الأرحب في الصالون فبدا الصالون كلوحة فنية رائعة الصنع ثم سارت متثاقلة إلى المطبخ كما لو أنها شعرت بالندم على العرض الذي قدمته له

يجلس إلى جانبها بحزن حمل يدها المطروحة على السرير وقبلها بإجلال يخاطبها والدموع تترقرق من عينيه ... سامحيني أمي لأنني تركتك وحيدة طوال الوقت كنت أنسى واجبي تجاهك كأبن باراً بأمه كدت أنسى بأني ابنك وأنك أمي وهذا المنزل منزلي كنت ضيفاً فيه طوال الوقت ليس الذنب ذنبي أمي لقد عشقت عملي إلى حد الجنون

وأصبحت أجد في السفر الملاذ الوحيد لي في الحياة بل أصبح من أجمل هواياتي ابتعدت عنك وعن محيطي وعالمي ،أمي أرجوك لاتلعنيني أنا بل إلعني الشهرة التي أخذتني إلى عالمها المغري وبنت لي في آفاقها العالية قصوراً وهمية أعلم بأنها قابلة للسقوط في أي وقت ولكنها تساعدني للصعود أكثر فأكثر إلى المجد سحقاً للشهرة يا أمي لأنها اخذتني منك أنا وحيدك مابك لا تردين عليَّ ،انهضي يا أماه وخاطبيني ... أحتاجك وأحتاج لنصائحك ورضاءك عني.

بكى ووضع وجهه بين كتفيه تحول بلحظات إلى طفل صغير يحن إلى حضن أمه وحنانها ...الآن أيقن بانه وجدها ولكن متى؟ بعد فوات الأوان ... ليتها تشعر به وهو إلى جانبها ولكن هيهات لأن تشعر بذلك

سرقته سلام من الجو الذي وضع نفسه فيه حين دخلت الغرفة ومعها القهوة نظر إليها ومسح دموعه التي هطلت من مقلتيه وطلب منها أن تجلس ،اقتربت منه وأعطته فنجانه ثم جلست على الكرسي المقابل للسرير،أصبحا يراقبانها معا وهي تغط في سبات نوم عميق ينظر إلى وجهها الملائكي وإلى قلبها الذي ينبض بصعوبة وصدرها الذي يعلوا ويهبط كادا يسمعا حشرجة أنفاسها كلاهما يعلمان بأنها تنتظر الموت ومع ذلك مازالت حية ومازال ابنها سعيداً لوجود ممرضة إلى جانبها بل إلى جانبهما معاً وجودها يصبره ويخفف عنه وطأة أحزانه

هذا كان الفصل الثالث في حياته بعد ظهورها على خط مستقبله كانت النظرة الأولى بل النظرات الأولى أكثر من رائعة رغم إختلاطها بالحزن والآلام ،سامر لا يريد أن يخفي شيء عن أوراقه فتلك الفتاة التي تجلس إلى جوار أمه لم تكن تحلم أو أن تفكر مجرد تفكير بأن تنال شرف دخولها إلى منزله ، هو نفسه لم يكن يتصور بأنه يستطيع أن يشرب فنجان قهوة تصنعه هي، يعلم بأن وجودها غير مجرى حياته وهي التي

لم تعتد أن ترسم لنفسها أحلام صعبة التحقيق فحلم لقاءها به كان المستحيل نفسه هي من تكون؟ هي نفسها لم تعد تدري لأنها أصبحت تنتمي إلى طبقة أخرى تحمد الله لأنها لم تقم بتأسيس تلك المهمة أو التخطيط لها من قبل القدر هو الذي رسم لها ذلك الدور الصعب فهي فاشلة في أمور الرسم ولا تجيد فن الفبركة أو الهندسة .... القدر ... القدر وحده من قام برسم ذلك الدور وقدم لها الشخصية التي تستحقها ولكنها مازالت تسأل نفسها: هل هي بارعة بإداء ذلك الدور ؟ ولكن كيف تتقن ذلك الفن وهي التي نشأت في حي البؤساء ؟

إنها خائفة محبطة وتائهة تماماً عن واقعها وتخشى أنها ما تزال جاهلة في أمور الفن وهو ما ذا يفعل؟ لا يملك إلا أن يراقب دون أن يضع في باله نجاح تلك الفتاة في مهامها

راوية أمه

ينظر إليها يتأمل هبوط صدرها وعلوه يشـــعر بأن أعصابها مستعدة تماماً لخوض معركة الرحيل إلى الأبد حالتها الصحية تسوء يوماً بعد يوم فالجلســـات الفيزيائية لم تعد تجدي نفعـــاً فالكبر على مايبدو عبر أعضائها حتى أصبحت هشة كعود الكبريت هو وحده من يعلم سبب ما هي عليه يتعذب من أجلها ويتمنى لها بينه وبين نفســـه الراحة الأبدية

ســـلام تراقبه وهو يجلس فبالتها والحزن يـــأكل بعضه وقد فكرت بينها وبين نفســـها بالموت الرحيم الذي أصبح يشيع في بعض المجتمعات ذلك الموت الذي يخفف مـــن عذابات المريض وينقله بلحظات إلى عالم البرزخ

تنظر إليه تشـــفق لحاله ومع ذلك عادت إلى نفسها ولعنت تفكيرها واستبعدت تلك الفكرة تماماً وأيقنت بأن وجود الخالق عز وجل لا مكان للمـــوت الرحيم لا يهم أن كان الموت الرحيم يريح المريض ويخفف آلامه فكل شيء في هذه الحياة يسير حسب إرادة الله عز وجل.

كيف تفكر بأزهاق روح إنســـان ربما شاء الله أن يكتب له حياة جديدة وما أدراهم البشر بما يمكن أن يصنعه القدر ؟

ممددة فوق سريرها كجثة هامدة وعبوة الأكسجين تقوم بإنعاشها لتبث الحياة فيها علها تنهض وتتابع حياتها ككل البشر

جلس إلى جانبها مطولاً وصرخ في أعماقه : لماذا ترفضين سماعي يا أمي ؟

ترفضين مسامحتي وأنا طفلك المدلل ؟ وفكر بينه وبين نفسه وإبتسامة ساخرة تعلو وجهه :

أما زال يظن نفسه طفلاً مدلاً ؟ ألم يتخطى مرحلة الفطام بعد وهو الذي أشبعته الشهرة غروراً ؟

ألم يكبر بعد وقد أصبح في نظر الجميع الفنان القدير ... نجاحه وفنه وثقته بنفسه وشهرته ... كل هذا لا يساعد أمه على استعادة صحتها

كانت سلام تقف في زاوية الغرفة تراقبه وهو يطلب المغفرة من أمه .. وهي تصغي إليهما ... وتساءلا الاثنان معاً : ما معنى أن تنظر إليهما وثم تلتفت إلى ابنها وتحدثه بعينيها اللتين غرقتا في وجهها.. أغرقتهما هالات الحزن والألم .... ثم تنظر إليها وتبتسم إبتسامة كما لو أنها تخرج من قلب الموت كان على أمه أن تعلم بأنه برع في التمثيل فقط ولم يبرع في فن الإيماء ... يجهل ماذا تعني تلك النظرات ... أمعقول أنه لا يستطيع أن يقرأ ما بين السطور ؟

كيف يقرأ ما بين السطور؟ وهو يكتب أشياء كثيرة لا يؤمن بها فأمه التي نظرت إليه وآطالت النظر كانت تحمله رسالة رغم أنه يجهل فحوها إلا أنه شك في أمرها ومع ذلك قرر أن يكتم أمر تلك الرسالة عن أوراقه ،أما هي عرفت ماذا تريد أن تقول لهما رغم أنها لم تصدق في البداية إلا أنها أيقنت تماماً ما أرادت قوله ،إنها بارعة بقراءة العيون وتعشق

التمثيل هي الأخرى قررت أن تكتم ما أرادته أمه بداخلها ،إنها تحسده وتحسد غيره من الممثلين وهو يجهل تماماً بأنها تعشق التمثيل ....

كيف لا والتمثيل يجعل الإنسان يجسد شخصيات كثيرة فيها الصالح والطالح فيها الحب والكره الطمع والخير الصدق والكذب شخصيا ت

تحكي مجتمعها وتحكيها تحكي هموم الناس وتساعد على شفاء ضمائر البعض وتلك الضمائر التي قررت أن تنسى أمر الواقع لتأخذ قسطاً من الراحة ،تساعد البعض الأخر على إجتياز المخاطر والمحن التمثيل واقعاً يعيشه الناس كافة يالسحر الطبيعة، أجل كان يمكنها أن تأخذ إن كانت ممثلة دور الطبيبة فبذلك الدور تستطيع أن تحقق الحلم الذي مات في السابق ،تحسده لأنه يستطيع تجسيد كل الشخصيات ليصل إلى الناس جميعا وكأنه يقدم لهم رسائل شفهية مطولة مفعمة بالحب مليئة بالأحداث الشيقة تحقق الأحلام.. تأمل أمه كثيراً قبل أن يطلب منها أن توضح أمر نظراتها لكليهما :

:أمي لا تحدثيني بالألغاز تعلمين بأنني لست بارعًا بقراءة العيون مطلقاً

هو محق فذلك الفن رغم بساطته لدى البعض يعد من أصعب الفنون على الإطلاق

:أفصحي أمي تكلمي ماعدت أطيق صبراً وماعادت عيناك تجيدان فن الحديث كما في السابق أمي... هل وجود سلام إلى جانبك يساعدك على العيش ؟ أعرف بأنها تفعل ما بوسعها لمساعدتك ولكن لماذا مازلت أراك ترفضين الحياة ؟أتريدين الرحيل إلى العالم الأخر قبل أن تنطقي بكلمة وداع واحدة ، تطفئ النار التي اندلعت في صدري

أصبح أكثر ما يسعدها أثناء وجودها في المنزل هو أنها صنعت نفسها راوية لأمه المريضة ليس أحلى من تلك المهنة إن كانت تسعد المرضى وفاقدي البصر،تجلس إلى جانبها على السرير كما لوانها تجلس مع طفلتها لتسرد لها حكاية علي بابا والأربعين حرامي كل ليلة... القصة اختلفت هي نفسها أصبحت تتخيل بأنها تجلس مع أمها وهي تحمل بين يديها كتاباً تطلعها عليه ،فكل ليلة تختار لها بعض الصفحات ... تسمعها بشغف وتسعد كثيراً لأنها تحكي لها حكاية شيقة مطولة وممتعة كل ليلة.. ربما جعلها ذلك الإصغاء تعود إلى سنوات طويلة عندما كانت أمها في الماضي تسرد لها قصةقبل النوم ..

تشعر به وهو خارج من الغرفة ليمر من أمام الباب وثم يختفي تسمع وقع خطواته وكل تحركاته حتى هو أصبح يشعر بمتعة عظيمة لأنه يصغي إلى سردها الطويل للقصة ،أخبرها ذات يوم بأنه يعشق أسلوبها الروائي الذي تتبعه فيجد نفسه مضطراً للبقاء في الصالون كل مساء كي يسمعها بشغف ،أصبحت بالنسبة له كالمسلسل اليومي فالطريقة تعجبه وتجعلها كممثلة احترفت فن التمثيل وعن جدارة لمح لها مراراً بأنها خلقت لتكون ممثلة لا ممرضة ولا حتى طبيبة تتقن جميع الأدوار بحيث تستطيع أن تدخل إلى أعماق الشخصيات التي رسمها الكاتب من خلال روايته ،تبرع بدور الأم ودور المرأة الشريرة أيضاً ،يكره أدوار الشر ومعها عشقها وهي تقوم بإداء الدور بإتقان الله خلقنا ،و زرع فينا قلوباً يمكنها أن تصنع الشر حتى وإن كانت مفعمة بالطيبة ... قلوب تشعر وتحب تنتقم وتسامح أحياناً نحن بشر ولدنا وبداخلنا تتصارع الأدوار

أصبحت سلام تستحي من انتقاداته اللذيذة حتى أنها أخذت تخفض صوتها أثناء القراءة الطبيعة التي أعطتها ما حباه الله عليها من جمال وذكاء عظيمين زرعت فيها الشر أيضاً بل إنها شريرة أكثر مما يجب

فالشـــر جعلها تكره عالم المترفين بل وتنقم عليهم ،كانت تعلم بأن أدوار الشـــر جميعها قد تجســـدت في وجه صاحب المزرعة الذي ظن بأن ماله أخلده واخلد سواه من المترفين أولئك الناس الذين نامت ضمائرهم بل تخدرت بأفيون الحرية والجشع والعنصرية .

ها هو يسمعها وهي تلبس شخصية أخرى مختلفة تماماً عن سابقاتها ،هاهـــي تعيش من خلال قراءتها قصة حب عظيمة عاشـــها البطلين في الروايـــة تتقن تمثيـــل حوارهما معاً ذلك الحوار الرائـــع واللذيذ الذي أيقظ قلبها من خموله ، تعيش الحوار وتحســـه في اعماقها بل يدغدغ مشاعرها ويوقظها من هدأتها وبرودها يشعرها بالوهن والهذيان لا ضير مطلقاً إن عشـــقت وأحبت من خلال القراءة والكتابة طالما هذا يجعلها ترحل إلى عالم غريب عنها عالم يشـــعرها بالنشـــوة والأنتصار على من تحبهم وتكرههم أيضاً،

تســـتطيع أن تحصل على مـــن تحب من خلال تمثيلهـــا لدور معين وهو لا يعلـــم ما يدور في خاطرها على الأقل ذلك مســـموحاً لهم هم الفقراء،أصبحت تعشـــق الفن الروائي بل إنها تعشق الحب الروائي الذي يجعلهـــا بلحظات تتخلى عن عالمها لترحل بعيداً إلى حيث تريد أن تكون تثور تارة وتهدأ وتســـتكين تارة أخرى كالمـــلاك في أكثر الأوقات تحب الرجل الغني الذي يعدها بـــأن يرحل بها إلى عالمه الباذخ ومرة تحب ابن الريف الذي يعشـــق على طريقته برومنسية رائعة

خلابـــة من يتغزل بها بكلمات يســـرقها من الطبيعة وأفاق الســـهر والليالي المقمرة يعجبها ذلك العشـــق اللذيذ بل تحســـد نفسها لأنها تجلس في ذلك المنزل الكبير ليس لجماله وروعته بل لمكتبته التي تكدست بمـــا لذ وطاب من الكتب المختلفة الأنواع ، تحدث كتابها في بعضها عن الفن المسموح وأخرى تحدث فيها عن

الأدب والشعر الجاهلي والأدب الرومنسي والكلاسيكي وأخرى تحدث فيها عن تاريخ العرب والأجداد مكتبته هي المسرح بحد ذاته أبو الفنون أيقنت تماماً بأن قلبها المفعم بالأحزان قادراً على أن يحب ويعطي وينتزع بذور الشر الكامنة في صدرها الكره الذي حملته لتلك الطبقة أصبحت تشعر للحظة من اللحظات بأن أمه لشدة إعجابها بما تقرأ لها ولكثرة ما تنال من حب ورعاية ستنهض من رقادها وتتكلم معها وتأخذها بين ذراعيها وتشكرها وربما تسامح ابنها علنا لأنها تظن بأنه اقترف شيء ما سبب تلك المأساة لأمه

ابنها الذي انجرف خلف تيار الشهرة وتجاهل أمرها لبعض الوقت ،بدت أمه سعيدة لوجود سلام إلى جانبها تخفف عنها حزنها وألامها حتى أصبحت لا تستطيع الأبتعاد عنها فإن زارت أمها واخوتها ينفطر قلبها وسرعان ما تفكر

بالعودة إليها وعندما تعود إليها تنفرج اساريرها وترتسم على وجهها إبتسامة عريضة

تمد لها يدها فتشعر بالفرح والأبتهاج الشديدين كما لو أنها طفلة تفرح بثياب العيد حتى سامر اعتاد على وجودها وأصبح يطلب منها مشاركته في جلساته ويشربان القهوة معاً وأحياناً تساعده بقراءة السيناريو وتأخذ دور البطولة وماهي إلا لحظات حتى يرحلان معاً إلى عالم الفن والنجومية ،أصبح يصر دائماً على أن تلق نظرات مطولة على أعماله قبل أن ينجزها ،تناقشه في مواضيع أدواره فيشعرها بالفخر كونها تأخذ الدور الأكبر فيجعلها بالأضافة إلى دور البطلة الذي تحفظه قبل الممثلة نفسها تساعده على الحفظ وفي أكثر

الأحيان ترسم له شخصيات جديدة وتخرج عن النص تلعب لعبتها كما لو أنها الكاتبة ،تلفت انتباهه لثغرات تكون غائبة عنه بينما الغضب

يعتلي وجوه البعض ،أصبح يشعر بنقص القدرات الفنية عند القائمين على العمل ككل وبالتالي ليس من حق الممثل أياً كان وضعه تعديل النص.

هذا ما يعتقده البعض ينســـون تماماً بأن الممثل حر نفسه ويحق له الخروج عن النص لسبب أو لأخر فالممثل صنعته موهبته والموهبة وحدها قادرة على أن تجعله إنســـان يرتجل جمل وكلمات تجعل المخرج يحترم خروجه عن موضوع النص ،يستحق حامل تلك الرسالة أي رسالة الفن الراقـــي أن يحمل لقـــب فنان وعن جدارة لماذا يظن الكاتب نفســـه بأنه وعندما يكتب العمل يصنع من خلاله الممثل يرسم له شخصيات مختلفة فإن كان يظن هذا فذلك يعني بأنه لا يستحق أن يأخذ لنفسه شخصية أخرى لأن أسلوب الكاتب الذي يخشـــى تلك النقطة أي نقطة الخروج عن النص والتعديل يجعله صنيعه ذاك يحتكر الفنان لنفســـه وسامر لن يكون صنيعة ذلك الإحتكار لأنها من طابع الأنانين

سألها : لم لا تكتبين ؟

أدهشها سؤاله : أنا .... أنا أكتب ؟

لم لا إن كنت تجيدين فن الرسم على الورق ؟

أنت تعلم بأني لا أجيد ذلك الفن الرفيع وتسألت بينها وبين نفسها :

إلى أين يريد الوصول ؟

هي نفسها لا تعرف ماذا يريد ؟

ينظران إلى بعضهما ويفكران مليـــاً بما يعتلج صدرهما فربما كان كلاهمـــا متحابان هي تعلم بأنها تحبـــه ولكنها غير واثقة بأنه يبادلها نفس الشـــعور فهي الفتاة الفقيرة والمعدومة ولكنها تفكر من جديد : إذاً لماذا يحب تواجدها معه ؟

إلى أين تأخذها أوهامها فهو لايملك إلا أن يشتهيها فقط لكي يفرغ من خلالها كل طاقاته العاطفية تسحره نظراتها ولكنه يخشى التورط بعلاقة يجهل نتائجها ،كيف يتـــورط معها وقد عاهدها أن تكون أخته .... لا يريد منها شـــيئاً إلا أن تمنحـــه ما تمنحه الفتاة المحبة لرجلها المفضل وبـــدون أي مقابل ،يعلم بأن تفكيره ســـوقياً وخارج عن طبيعته كرجل شـــرقي يعتز بمبادئ وأخلاق تربى عليها منذ الصغر ولكنه رجل والرجل يحتاج في وقت من الأوقـــات لإمرأة.، يفكر في مصيره ومصيرها معه فإنه كان يريدها لنفســـه أين سيضع رجولته ؟

ربمـــا في مرتبـــة الرجال غير المحترمـــين لا .... لا يجب أن ينجرف خلف تفكيره ويصبح رجلاً مســـتبداً أنانياً شهوانياً كونه صاحب سلطة لا يحـــق له أن يتمناها لنفســـه دون مطالبتها بحقوقها وهو يعلم تماماً مقدار الحب الـــذي تحمله له في قلبها ،هو يعلم بأنها نشـــأت في ذلك العـــالم الغريب عنه وفي ذلك الحي الحقير وتلك الصومعة القذرة التي لا تصلح في نظره إلا

لإحتواء الحيوانات ...أو صومعة البؤساء كما أطلق عليها

ســـلام تحفظ ما كانت ترددة أمها على مســـامعها: الفتاة كقطعة الزجاج فـــأن وقعت وتحطمت إنتهى أمرها وكالزهرة إن قطفها أحدهم ذبلت وهذلت وتساقطت أوراقها..

يجب أن تظل كالمصحف الذي لايلمسه إلا المطهرين

لا يريد أن ينصرف خلف ســـيادته ويفكر بأذيتها ليصبح نقطة سوداء ترســـم في الصفحة الأولى من كتاب حياتها ولكي تكون هي رقماً قياسياً يقربها من الموت يتمنى أن تتزوج من يســـتحقها ... ولكنه يتساءل ومن الذي يســـتحقها غيره ؟ وهو الذي تعود منذ نعومة أظفاره بأن الذي في

منزله ملكه وحده ولا ينازعــه فيه منازع ولا حتى أخته الوحيدة مازالت في داخله أسئلة كثيرة يجهل الإجابة عليها فأنانيته سرقت منه إنسانيته لبعض الوقت كما لو أن أفكاره أرادت أن تأخذ لنفسها قسطاً من الراحة

***

«وخلعت ثوبها الأسود»

لا يدري إن كان هذا عنواناً لقصة قرأها أو لمسلسلاً تلفزيونياً شاهده على الشاشــة ... ربما هو مجرد عنوان مرى على خاطره ،الحالة المادية بالنسبة لعائلتها قد تحســنت تماماً إلا أن التحسن جاء متأخراً بعض الشيء كانوا قد تخطوا محنة الألم والجوع والحرمان إلا أن القدر يقول كلمته دائماً .

ماتت ســارة أختها الصغــرى حين وصلت النقــود إلى يد أمها كان الأوان قد فات لأن ســارة كانت تعاني إلتهابــاً مزمناً في الرئتين وكان العــلاج أنذاك مكلفــاً بالنســبة لعائلة معدومة ،ظلت في المستشــفى لأيام طويلة والشــيء الوحيد الذي كان يساعدها على البقاء حية هو الأوكســجين كانت في شــبه غيبوبة الجميع تعذبوا لأجلها بالأضافة إلىعذاباتهــا وآلامها هي ،كانــت أمها تراقبها وهــي تتنفس بصعوبة وصدرها يعلوا ويهبط بصعوبة فائقة أيضا.. وهذا ماكان يزيد من آلام الأم

قــررت أن تكون رحيمة معها لتخفف عنهــا الألم وكان القرار صعباً والمحنة أصبحت أصعب اقتربت مــن ابنتها وقبلتها قبل أن تقطع خط النهاية بنزع أنبوب الأوكســجين عنها لتتركها ترحل بسلام

أصبحت بلحظات في عالم أخر كان تعلم بأن الأمل بشـــفاءها شـــبه معدوم على حد قول الطبيب والمصاريف لا ترحم فالتنفس الإصطناعي مكلفاً للغاية وعلى من يريد العيش لابنه المريض عليه أن ينســـى طعم الخبـــز والملح ،إختصرت أمها المســـافات وأنهت حياة ســـارة ليعيش باقي أخوتها ،وصرخ من أعماقه وهو يخط هذه الأسطر :هذا ظلم لقد ارتكبت أمها جريمة يعاقب عليها القانون فإن علمت الجهات المختصة بذلك لن تســـتطيع الفرار من وجه العدالة ...ولكن ماذا عن عدالة السماء.؟؟

هي وحدها من كانت مســـؤولة ...وحدها مـــن كانت ترى ابنتها وهي تتمزق لشدة الالم ..من يدري إن تركتها تحت رحمة الأوكسجين كتبت لها الحياة من جديد

قالتها بصمت : إنها إرادة الله ...

دائماً نفعل الشـــر بأيدينـــا ونضع اللوم على القـــدر ،لكم تمنى أن يشـــاركها أحزانها.... يضمها إليه لينســـيا معاً هموم الدنيا فعندما تركت ســـلام منزله أضافت على أمه حزناً أخر لم يكن يدري إن كانت حزينة على موت سارة أم على رحيل سلام وهي التي اعتادت على وجودها ،كان يجدها تبكـــي بصمت وترفض حتى

الإصغـــاء لحديثـــه تنفر حتى من لمســـة يده ليدهـــا وكأنه عدوها وهذا ما كان يعذبه مابـــك ياأمي ؟ ألا يمكن أن تصفحي عني ولو من خلال نظراتك أمي اعتذرت لـــك مراراً وتكراراً فلم مازلت ألمح الغضب في عينيك ،أســـف يا أمي لأنني الســـبب بما أنت عليه الأن أعرف بأنك تكرهينني ،تكرهينني لأنني أردتها هي دون ســـواها صرخت بك وهددتك بأنني ســـأتزوج ((ناري)) ســـواءً رضيت بذلك أم رفضت أردت إغضابك متخطيـــاً كل احتراماتي لك وأنت أمـــي ،صفعتني يومها ومازال رنين صفعتك يخز أذني مازلت أتألم فعلت بي هذا وأنت تعلمين كم أحبها ؟

ليس الذنب ذنبي فأنت من أنشـــأني علـــى الدلال كنت تقولين بأنني أفهم ســـبب إعتراضك عليها هي بالذات ؟

فوجئ بدخول سلام إلى الغرفة بعد مرور فترة الحداد وهي تحمل بين يديها صينية وضعت عليها فنجان قهوة مع طبق من الحساء ،نظر إليها ونهـــض مرعوبا من مظهرها الجديد لاحظ بأنها تغيرت تماما ولبســـت وجهاً أخر كما لو أنها سمعته يتحدث عن فتاته وعن ســـبب مرض أمه ولم يكن يحبها أن تعرف

قالت له :هل رأيت شبحاً ؟ لم يجبها على سؤالها فاقتربت منه تقدم له القهوة وثم اتجهت إلى أمه لتجلس قبالتها على الســـرير وكانت تستعد لرفع رأسها وسنده بوسادة لكي تساعدها على تناول الحساء عندما سألها : لماذا ترتدين اللون الأسود ؟

:تعلم بأن أختي ماتت منذ أيام ؟

:وهل يعيدها ثوبك الأسود إلى الحياة ؟

:أحب هذا اللون

:أنا معك لأنه لون جميل ويليق بك كثيراً يتناســـب تماماً مع لون بشرتك العاجي ومع ذلك لا أحبه ...

:كما لو أنك تغازلني

:تستحقين أن يغازلك الآخرين سلام لا أحب أن أرآك مغرقة نفسك بالحزن فهذا الثوب سيذكرك بها على الدوام أريدك أن تنسي

:لن أنســـها ما حييت رحلت إلى الجنة وقد كانت تعيش في الجحيم حزينة من أجلها لأنها لم تعش كغيرها من الأطفال ولم تعرف الفرح ولم تحصل على دمية حتى كانت رحمها الله تطالب أمي على الدوام بشراء

دمية لها لم تكن تعرف ماذا تعني طفولتها بالنسبة لها لأنها عاشت في منزل أكلت جدرانه الرطوبة مع أناس بائسين.

أيقن سامر من يومها بأنها تكره عالمها الذي نشأت فيه وتحتقر حيها الذي لم يولد لهم جميعاً إلا الألام ،ربما أحس بأنها تنقم على والدتها لأنها تزوجت والدها وهما فقيرين دون أن يضعا في مخططات حياتها ما يمكن أن يرسمه لهما المستقبل فهما لم يعرفا مطلقاً بأن الفقر يولد الفقر حتى أن وجد الحب ،الحب وحده لا يبني قصوراً ولا ينجب مالاً يفخر به الأبناء.

كانت نظراته واضحة تماماً كما لو أنه أشفق عليها وهذا ما كانت لا تريده ،غنية هي في أحلامها وطموحاتها وبالمستقبل الذي ترسمه لنفسها ،بسببها استطاع أخيها البقاء في المدرسة واستطاعت أختها الاستمرار في دراستها بعد أن قررت أمها إخراجها من المدرسة لكي تساعد أختها في مصاريف المنزل ،رفضت سلام وبإصرار أن تترك أختها دراستها ،كل هذا ومازالت تريد لعائلتها الأفضل دون أن تفكر بنفسها وهي الفتاة الشابة والطموحة كانت تضايقها نصائحه التي كانت تنهال عل مسامعها على الدوام ..

:إلى متى تضحين من أجل أخوتك ؟ ألا يحق لك أن تحلمي وتحققي كل ما تتمنيه لنفسك كفتاة شابة وجميلة ؟

:وماذا يمكن أن أتمنى طالما أنا مسؤولة عنهم ؟

:أنت تخسرين عمرك تنسين أمر مستقبلك يجب أن تعلمين بأن أخوتك وعندما ينالون مبتغاهم لن يسألوا عنك ،سينسون أمر تضحيتك صدقيني لا يستحقون كل ما تفعلينه لأجلهم

:أنت عديم الإحساس وقاسي القلب أنا لا أريد للتاريخ أن يعيد نفسه، على إخوتي أن يحققون ما عجزت عن تحقيقه علهم يخرجون من ذلك الحي الحقير إلى حيث يجدون أنفسهم وساعتها سأخرج معهم

:تحلمين كثيراً يا سلام ....

أصبحت أمها متمسكة بهم أكثر من ذي قبل دائماً تعاني من ذلك الهاجس وهو أنها ستفقد أولادها ابناً بعد الأخر بالكاد تقبلت فجيعتها بإبنتها سارة أشياء وأشياء كثيرة قد تفكر بشأنها ،كان يسعدها كونها أصبحت صديقته فهي ما تزال تكتم بداخلها مشاعرها الحقيقية اتجاهه ليس من حقها إطلاعه على أمر ربما يخجلها أو يخجله وربما يضطره الأمر لكي يطلب منها بلباقة التنحي عن وظيفتها كممرضة لأمه كي تعود إلى عالمها من جديد كانت تريد أن تبقى خارجة عن واقعها ومن كل قلبها تمنت طول البقاء لأمه المريضة كي تبقى إلى جانبه ولكي لا تضطر أسفة للخروج من منزله الذي جعلها تشعر بالأمان

هو لا يدري بأن حبها له أخذها إلى البعيد أذهب لبها إلى حيث التوهان أحرقها بنيرانه التي حاولت مراراً أخمادها بدون جدوى... طالما سألت نفسها والحب العظيم يتأجج داخل أعماقها ويزداد تأججه يوماً بعد يوم، ماذا تراها فاعلة بذلك الحب ؟ من أجله فقط قررت أن تنسى أحزانها لتلبس شخصية أخرى ... من أجل حبه خلعت ثوبها الأسود .

وبرقت عيناه

أبـــى النوم في تلك الليلة إلا أن يجافي عينيها ،مازالت ســـاهرة وقد تجاوزت الساعة الحادية عشـــرة ليلاً ،في كل ليلة تشعر به يفتح الباب ليلق على أمـــه نظرة وثم يغلقه بهدوء كـــي لا يزعجها ،دائماً يظنها نائمة كيف له أن يشعر بأنها مستيقظة وهي تنام إلى الجانب الأخر من السرير على فراش بسيط افترشته على الأرض فراشاً رقيقاً ربما لا يليق إلا بالخادمات

عرض عليها مراراً أن تختار لنفسها سريراً أو حتى أريكة كبيرة كي تنام عليها وتشعر بالراحة إلا أنها رفضت فوجودها في منزله ليس دائماً وبالتالي لا يستحق نومها على الأرض كل هذا الاهتمام

كان الليـــل مملاً حتى ظنته لن يعـــود إلى المنزل وهي التي اعتادت مشاركته شـــرب القهوة والحديث لساعات طويلة تجد المتعة من خلال جلوســـها برفقته لم تفكر ذات يوم بتغيير منظهرها الخارجي ولم تحاول جذب انتباهه

لأنها فوق ذلك إلا انها كغيرها من الفتيات تحب الوقوف للحظات أمـــام المرآة لتلق على وجهها نظرة فاجأها بفتح الباب وقد كانت تقف أمام المرآة وأطلقت سراح شـــعرها الطويل فانطلق على كتفيها جميلاً

ناعمـــاً،لم تكن تـــدري لماذا كانت تبقيه ســـجيناً طـــوال النهار لتطلق ســـراحه ليلاً ،وقفت أمام المرآة تلمست بشـــرة وجهها ونظرت إلى عينيها بعمق،ورحلت بلحظات إلى عالمها الســـحري الذي لا تملك الرحيل إليه إلا ليلاً ،وبخلســـة عن الجميع

دائماً تســـد عليه كل وسائل الإغراء التي تســـتعملها الفتيات عادة لإســـتمالة الرجال وهي بعيدة عن كل هذا لم يعرف يوماً بأن شـــعرها طويلاً فهي تعقصه إلى مؤخرة رأســـها على الـــدوام كإمرأة عجوز

ما أن رأته يفتح الباب حتى أصابها الفزع وتدفق الإحمرار إلى وجهها ،رشـــقته بنظرات خائفة مرتعشة وابتعدت عن المرأة بطريقة مهذبة كي لا تثير ريبته وراحت تنظر إلى أمه التي كانت تغط في ســـبات نوم عميق بينما ظل واقفاً والوجوم يعلو وجهه تماماً .

للمرة الأولى تجده ينظر إليها نظرة تختلف عن ســـابقاتها لأول مرة تسمرت قدماه أمامها دون أن يقدم إليها تبريراً فهو يعلم تماماً بانهأخطأ حين فتح الباب دون سابق إنذار ينبؤها بوصوله إلى المنزل

لم يحرك ســـاكناً وهي تشـــعر بالإحراج ،نظرت إليه من جديد لكي يرأف بحال خجلها ونظراتهـــا الخائفة ويتكرم عليها بالخروج من غرفة أمه ولكنه لم يفعل

أحســـت فجأة بأن عيونهما تتلاقى عن قرب ولأول مرة ،تأملها بعمق فأحســـت بجفاف في حلقها ،أرادت أن تســـرقه من تأملاته التي أخجلتها وأربكتها فســـألته وصوتها يرتجف : أتريد شيئاً يا سيدي ؟

قـــال ومازال يحـــدق بها والوجـــوم يعتلي وجهه : أســـف لقد أردت الإطمئنـــان على أمي

:أنها بخير لقد أخذت دوائها ونامت

:كيف حالها اليوم ؟

:كما كانت بالأمس

أضحكه جوابها الناعم وكيف كانت بالأمس ؟

إنها كما هي لم تتحسن منذ خرجت من المشفى ولكنها تحرك يديها وتمسك يدي وكأنها تشكرني وتبتسم أحس بأنها تقول لي أحبك..أمك بدأت تحبني تخيل

قال: الحمدلله

ولكنه .فكر ربما تكون مزحة منها لتلطيف الجو .. ليس إلا ...

أردت البقاء مع أمي لبعض الوقت ولكنني أجد بأن الوقت غير مناسب

قالت وهي تحاول إعادة خصلة من شعرها إلى خلف أذنها :

:ابق معها إذاً وسأخرج أنا

:بل ابقي لن أطيل البقاء

:لا .. سأنتظرك خارج الغرفة

:أين هي الخادمة ؟

:تعلم بأنها لاتقيم هنا ؟؟تقوم بعملها وترحل

أصبحت تعرف بأنه كلما سأل عن الخادمة هذا يعني بأنه يريد القهوة

:لا بد أنك تريد أن أصنع لك القهوة ...

:لا... لا أريد أتعبك معي

:لا لا.. يسعدني ذلك سأصنع القهوة حالاً

إتجهت نحوه ونظرت إليه وإذا به مازال واقفاً قبالة الباب شعر بإقترابها منه حتى أنه يشم رائحة عطرها ويحس بقلبها الذي يخفق بشدة ،ها هو يقـــف أمامها وجهاً لوجه رغم أنه يعلم بأنها ومن خلال نظراتها ترجوه الإبتعاد عن الباب كي تجد لنفســـها منفذاً للهروب أحس تماماً ،بأنها لم تصنع من نفسها خادمة إلا لكي تهرب من حرارة أنفاسه بل من حرارة ذلك الموقف الذي وضعها فيه ،يعلم بأنها تثق به وتحترمه إلا أنها على الدوام تخشى أن يكون الشيطان

ثالثهمـــا بأعماقه أرادهـــا أن تخرج رغم وقوفه لا لشـــيء فقط لكي تحتك به.

خجلة من تحديقه المستمر بها ومن نظراته الغريبة تجرأ وهمس لها بطريقة شاعرية..

تسحرينني أعشق هذا البريق الذي في عينيك

تساءلت : ترى هل يؤدي دوراً مسرحياً ؟

ومع ذلك خافت من مغازلته تلك وكاد قلبها يقفز من بين أضلعها

تجرأ ولمس شـــعرها بأطراف أصابعه وهي ما تـــزال واقفة خجلة لا تحرك ساكناً تسمرت قدميها تماماً بل نسيت نفسها تماماً حتى توهمت بأنها تســـاعده على أداء دوره المسرحي الرومانسي

لهذا ظلت واقفة غير معترضة على تلك الملامسة اللذيذة

كل ما فعلته هو النظر إليه لتلمس ذلك البريق الساحر الذي

يملأ عينيه ... همس لها من جديد :

بودي لو التهم هذا البريق بلمسة من أصابعي ....

أصابها الرعب وأخجلتها كلماته الساحرة أصبحت ترتعش كما لو أنها أصيبت

بالبرد بينما أحســـت بيده التي أنزلقت فجأة تلامس وجهها لقد شعر بأن خطوط رأسه الدماغية قد توزعت جميعها واستقرت في يده المرتعشة ثم أخذ يسأل نفسه : أمعقول أن تكون لمسته تلك هي إشارة مرور يرسلها إلى امرأة يظن نفسه أحبها ماذا به ؟ لماذا يشعر بذلك الخفقان العجيب في قلبه ؟ لماذا ينتابه ذلك الشعور الخفي الذي يسبق أي قصة حب ؟

أصبحـــت تلمس حبه لها من خلال نظراته الملتهبة ولمســـاته المترددة وإلا مـــا تجرأ وهمس لها بتلـــك الكلمات ولا لمس وجهها،خافت من أن يزداد المشهد رومنسية فحملت يده بطريقة مهذبة لم تؤذ شعوره وأنزلتها عن وجهها ظلت تمســـكها لوهلة ... تأملتـــه بنظرة خاطفة ... خائفة مرتعشـــة ثم لم تدر كيف وجدت لنفسها مكاناً للعبور ،خرجت مسرعة من الغرفـــة ولم تقل كلمة واحدة .. خافـــت أن يتوقف قلبها فتوقفت وأسندت ظهرها إلى الحائط ونظرت من جديد إلى ما يفعله داخل الغرفة دون أن يلحظ وجودها

رأته يقترب من المرآة ويلمســـها بأصابعه عله يجد صورتها مرســـومة على المرأة بل ملتصقة بها إلى حد الســـحر يتخيل بانه يلمس شـــعرها وخدها وربما خيل إليه بانه يقبلها ويشـــعر بأنفعالات خفية تتسرب إلى أعماقه فماذا يريد أكثرمن هذا ؟ أيقن بأنه لا يلمس إلا السراب ... بل زجاج ســـرعان ما يتحطم ويتحول إلى شظايا

ترك المرآة واتجه إلى سرير أمه وجلس إلى جانبها يخاطبها وهي نائمة ، أصبح لا يملك إلا محادثتها دون أن تحس بما يعتلج صدره ...يخدرها الدواء تماماً فترحل بعد أخذه إلى عالم أخر يشبه عالمه لا ضير إن كان التخدير يخفف عنها آلامها

خاطبها بحزن : أمي أصبحت أحتاج لوجودها إلى جانبي في حياتي أحتاجها وأريدك هل تسمعينني ؟ إن كنت تسمعين ما أقوله بماذا تنصحينني ؟

آه يا أماه ..... كيف تنصحين ابن لا يفقه معنى النصح وأنت تعيشين في عالم غير عالمه ،أحبها يا أمي ولا استطيع الإرتباط بها تعلمين لماذا ؟ سيحتقرني أصدقائي وينبذني المجتمع أنها من عالم أخر يختلف كثيراً عن عالمنا من بيئة أخرى لا تمت لبيئتي بصلة بعيدة عني كل البعد ،أرشديني يا أماه أحتاج لمشورتك :

سمعته تماماً وهي جاهلة من تكون تلك المرأة التي لا يريد الإرتباط بها خفية من كلام الناس .... إنها تغار منها ... ظنت لبعض الوقت بأنه قصدها هي ولكن هيهات لأن يحبها وعالمه السحري مليئ بالنساء الجميلات ،استطردت تلك الأفكار من رأسها تماماً وتساءلت بينها وبين نفسها بسخرية

: من تكون هي لكي يفكر بها أو لكي تغار من وجود امرأة أخرى في حياته ؟ ليس من حقها أن تنظر مجرد النظر إليه ... إنها مجنونة دون شك

نسيت أمر الغيرة وغادرت إلى المطبخ لتصنع من نفسها خادمته وتعد له قهوته

لم تمر ســـوى دقائق حتى أنهـــت إعداد القهوة ،خرجـــت من المطبخ مثقلة القدمين لم تلحظ بأنها ســـاوت نفسها به واعدت لنفسها فنجاناً أخر لتشاركه جلســـته وربما أحاديثه قبل أن يلحظ دخولها إلى الغرفة سمعته يرددها على مســـامع أمه :

:أحتاج لمشورتك يا أمي ....

تدخلت لتسأله : تحتاج لمشورتها في ماذا ؟

قال دون أن ينظر إليها : أشياء كثيرة ..... آه يا سلام كم أحتاجها إلى جانبي ولكن هيهات فكيف تسمعني وهي في شبه غيبوبة ؟

:ثق بأنها تسمعك

:تظنين هذا ؟

:لا أظن إنما أنا متأكدة وهي تشعر تماماً بما تعانيه

تأمل أمه مطولاً وحمل يدها يقبلها ثم رفع الغطاء على صدرها وأخرج من صدره تنهيدة عذبت سلام كثيراً لكم تمنت مساعدته والتخفيف عنه ،نظـــر إلى القهوة التي تحملها وقال لها: إذا سمحت سنشـــرب القهوة في الصالون لندع أمي ترقد بسلام

:ولكن يا سيدي ...

:لم لا تكفين عن مناداتي بسيدك ؟

:لا أريد الخروج عن حدودي

:أنستي هل تعترضين إن شربنا القهوة في الصالون ؟

ضحكت من كلمته الإرستقراطية تلك وكررتها قائلة : آنستك ...

خرجـــت من الغرفة ولم تكن تنتظر منـــه كلمة أخرى لأنها رأتها في عينيه الســـاحرتين ، خرج خلفها وكانت ماتزال تقف عندما جلس على الأريكـــة وطلب منها الجلوس ، اقتربت منه لتقـــدم له فنجان قهوته ثم وضعـــت الصينية على الطاولة الصغيرة وأخذت فنجانها وجلســـت على الأريكة المقابلة لأريكته وأخذت ترشف قهوتها بهدوء، التفتت إليه لتجده مازال يتأملها ثم نظر إلى شـــعرها الذي عاد إلى سجنه من جديد سألها : شـــعرك جميل فلماذا تعقصينه دائماً إلى مؤخرة رأسك ؟

:أمي تقول بأن الشـــعر الجميل يلفت الأنظار بل إنه وسيلة هامة من وسائل

الإغراء والذي من خلالها تستميل الفتاة الرجل فإن فعلتها وأسدلته هذا يعني أني لا اســـتحق الإحترام ولن أقل أبداً عن بنات الشوارع ،تقول أمي بأن الرجل يعشق المرأة من خلال شعرها وعينيها ...

:ألهذا لا تضعين الكحل في عينيك كما تفعل فتيات هذه الأيام

:أيمكنك أن تتصور بأن الطبيعة التي خلقها الله تملاءها الصباغ ؟

لم يجبها على ســـؤالها بل قرر الاحتفاظ بذلك لنفســـه واتجه إلى موضوع أخر :

:أتشعرين بالراحة وأنت تنامين على الأرض ؟

:وهـــل أخبرك أحدهم بأنني في منزل أهلي كنت أنام على فراشٍ وثير صنع من ريش النعام وصنعت أغطيته من الحرير المطرز الخيوط الذهبية١ ؟ يا سيدي هناك كنت أنام على الأرض لم يختلف الوضع كثيراً بالنسبة لي حتى أنني أرتاح هنا كثيراً أشـــعر كما لو أنني خلقت في هذا العالم

:هل تعجبك حياتنا؟

لا أدري بالضبط كنت دائماً أجد بأن الأغنياء منشـــغلون تماماً عنا نحن الفقراء

وضـــع فنجانه على الطاولة وتنحى قليلاً من مكانه فوجدت نفســـها مجبرة على ترك فنجانها هي الأخرى كانت على وشك النهوض عندما لمحته يقترب منها ويجلس إلى جانبها ويحمل يدها

اســـتغربت موقفه وخافت من يده التي تملكت يدها تماماً خافت من ذلك الضغط الذي جعلها تشـــعر بأنها ستشهد نهايتها ....

فوجئت عندما سمعته يسألها : ألا تفكرين بالحب ؟

أجابتـــه بكلمات متقطعة مرتجفة خائفة : ســـيدي نحن الفقراء لا يحق لنا مجرد التفكير بتلك الأمور نحتاج للتعب و الجني كي نحصل على رغيف الخبز يومـــاً بيوم فالحب لامكان له في قلوبنا ..

:تظلمين نفسك كثيراً

:إن كنت سأفكر بنفسي؟ تلك أنانية مني..

كيف أحب وإخوتي في حاجة إلي أكثر من ذلك الرجل الذي يمكن أن أمنحه حبي ؟لا أريد أن أكون أنانية

:تنسين إنك إنسانة

:ومن هذا الذي سيحب فتاة فقيرة مثلي ونحن نعيش في هذا العصر المتطلب؟

لم يجبها عن سؤالها بل اكتفى بتأملها وهو على يقين بأنها أصابت الهدف ،لكم تمنى أن يعترف لها بحبه وأن يشـــعرها بإهتمامه ولكنه قرر أن يصمت فكبريائه أقوى من تهزمه عواطفه

مـــازال يحمل يدها ومازالت تشـــعر بالارتعاش في جســـدها وبرودة يدها جعلته يحس بمشـــاعرها نحوه ،فوجئت حـــين رأته يرفع يدها إلى فمـــه ليقبلها حررتها من يده بصعوبة قالت وهي تســـحب يدها من بين أصابعه:لا تنســـى بأنني خادمتك ؟

:بل أنت ممرضة أمي

:وما الفرق ؟ أنا ممرضة معدومة فقيرة وأنت فنان سيدي نحن بعيدين عن بعضنا بعد السماء عن الأرض

:ولكنك إنسانة

:في مجتمعنا يا ســـيدي تدهس حقوقنا كبشـــر ونعامل كحثالة ووجودنا غير مســـتحب بينكم

:أنت مخطئة يا سلام

:بل أنا أقول الحقيقة فأنتم الأثرياء تتفوقون علينا

:وأنتم تســـتحقون الاحترام أعد من الأثريـــاء ولا أظنني تفوقت على أحد بل على العكس تماماً أنا أشـــعر بأننا متساويان

:أرجوك يا سيدي لا تحدثني عن المساواة فأنت وحدك تعرف من أكون وأين أعيش . . . أنا لا استحق اهتمامك

اقترب منها وشعر بحرارة أنفاســـها ثم حمل وجهها بين كفيه ورأى الخـــوف في عينيها ثم قال : أعرف . . . أعرف من تكونين تســـتحقين أن تنالي لقب سيدة مجتمع راقية

أرادت أن تحرر وجهها منه ولكنها وجدت نفســـها عاجزة تماماً ،وهو يظن بأنه يمارس حقه حين تقمص ذلك الدور . .دور الرجل الذي يحق

له أن يتملك كل شـــيئ،الرجل صاحب الســـلطة أحست بانه سيتخلى عن أخلاقه وينســـى أمر العهد الذي أخذه على نفسه بأنها ستكون أخته بعهـــد الله ،ويتخلى عن مبادئه لفترة قصيرة وأراد أن يأخذ ما يشـــتهيه منها .... تلاقت عيونهما فأغراه ذلك الخوف المتأجج الذي ملئ عيناها أغرته تلك الشـــفاه القرمزية التي أصبحت تدعوه بإلحاح لتذوقها وربما لإلتهامها ،ثم قبلها.. قبلها تلك الشـــفتين العذراوتين قبلها ... قبلة أحس بأن من حقه ســـرقتها منها ومازال يظن بأنه ليس السبب بل إنها إشارات دماغه التي توزعت إلى جميع خلايا جسده

كانت تريد أن تصرخ به : أيها الأحمق لســـت أنا خادمتك ولســـت أنت ســـيدي أكان يظنها ستنسى نفسها وتســـير خلف رغبته وتضعف أمام جبروت ســـلطته بل خلف أوهامها وجبنها ... لما هذا الضعف أمام قوة ذراعيه ؟ هي نفســـها لاتدري لأنها ما زالت أسيرة تحت ضغط ذلك الخدر اللذيذ الذي أخذها بلحظات إلى أحضان الخطيئة،أستيقظ سامر من غفلته حين أيقن بأنها إنســـانة وتســـحتق الإحترام خاف أن تضعف أكثر وتتلاشـــى بـــين ذراعيه فتمنحه ما يريده ،بـــل أنه أحس بضعفها وأستسلامها.. خاف من نفســـه عليها خاف من تماديه ،هو يحبها نعم ولكن الواقع يرفضهـــا يرفض بيئتها التي تنتمي إليها

نظـــرت إليه بخوف ثم نهضـــت متثاقلة دون أن تبنس ببنت شـــفة واتجهت مهرولة إلى غرفة أمه ومازالت تشـــعر بأن نظراته ظلت تلاحقها حتى غيبها الباب ،أغلقت الباب بغضب وأسندت ظهرها إليه فلمحت أمه التي علـــى ما يبدو أيقظها صوت الباب

كيف تستيقظ من غيبوبتها هي الأخرى ....

أكانت تحس بما يجري حولها ؟

أعرفت بأن ابنهـــا المدلل قبل ممرضتها ؟ أتعرف بأنه أخافها وكادت تصبح ملكه منذ لحظات قليلة ؟

إبتسمت أمه ابتســـامة مبللة بالالم ومدت لها يدها لكي تقترب منها ،سارعت

ســـلام إليها وجلســـت إلى جانبها فوق السرير مسكت يدها كما لو أنها أحســـت بأنها تباركها تلك القبلة التي اختلسها ابنها منها عنوة

أيقنـــت بأنها تريدها أن تصبح له تحبه وتضعف أمام رغباته ســـعيدة لما حـــدث على الرغم من أنها لم تكن تحـــب أن تأخذ منها قبلة وبتلك الطريقة ،هذه المرة

الأولى التي يقبلها فيها رجل وليس أي رجل ... ،أنه الرجل الذي تحب

أصبحت الأم بحالة كانت جديدة

على ســـلام و قلبها يعلو ويهبط ليس ألماً بـــل إنها أرادت أن تقول لها شـــيءً عجز لســـانها عن قوله ...لماذا هي عاجزة عـــن الكلام ثم ماهذا الإصـــرار الذي في عينيها ؟

ماذا تريد أن تقول لها؟ تشـــد على يدهـــا وتقربها منها ... تتحرك بطريقة غريبة كل هذا وسلام لا تريد أن تفهم مقصد الأم من كل ذلك

أم إنها تتجاهل الأمر كيف لا تتجاهل الأمر وما تريده الأم ليس من حق سلام بل هو من حق امرأة أخرى

أصبحت عاجزة بســـببها رغم كل ما أحســـت به إلا أنها سعيدة ولا تدري لمـــاذا إلا أنها مازالت تخاف من تلـــك اللحظات وذلك البريق الذي أصبح يلتهـــب في عينيه كلما نظر إليها

وتكلم القدر

كان يمكنهـــا أن تترك له منزله وعالمه وتعود إلى عالمها هي لتنســـى حلاوة تلك القلبة ولكي تهرب من تلك النظرات التي يرشقها بها كلما تلاقت عيونهمـــا والتي كانت في أكثر الأحيان تنم عن شـــهوة مكبوتة داخل صدره ،رغم أنها ســـعيدة بذلك الإحساس إلا أنه يعذبها لأن سامر قد خلى بعهده وجعلها للحظة خليلة له،أو لأنه تمناها لنفسه حتى وإن كان ذلك التمني مجرد نزوة عابرة. .ولكنها كما أرادت أن تكون وظلت لتأديـــة واجبها كممرضة أجل فأمه تحتاجها وتحتاج لرعايتها.

درات الأيام دورتها كما هو الحال في قاموس القدر ومازالت أمه على حالها ولم تحرك أية جارحة من جوارحها ،لا تملك إلا أن تبتســـم حين تراها وتضغط على يداها كلما جلســـت قبالتها ،كما لو أنها تحملها رسالة تحفظها بداخلها وهو مازالت نجاحاته ترفعه أكثر فأكثر وتزيد غروره كما لو أن القدر يرفعه إلى

الأعلـــى ويهبط بها إلى الأســـفل ليســـخر منها ،بـــدأت تكره ذلك الدور تكره وجودها في منزله وتكره أن تكون فريســـة لنظراته الشهوانية ومـــع ذلك واجبها المهني يحتـــم عليها البقاء تعلم بـــأن وجودها يزيد الأمـــر ســـوءً لأنها فأن أســـعدت أمه ســـتبقى بنظره تلـــك الخادمة

الـــتي تصنـــع له قهوتـــه الصباحيـــة وتقوم علـــى رعايته و أمـــه ....

أصبح يضايقها ذلك الوضع وأصبحت تغار من نجاحاته المســـتمرة التي تجعله يكبر أكثـــر فأكثر وهي تعلم بأنه وكلمـــا حقق أنتصاراً يبتعد عنها أميال

أنه يعلم بأن الإنســـان الذي يطلب العلا عليه أن يســـهر الليالي ومع ذلك عندما نال العلا نســـي واجباته تجـــاه أمه ومنزله وعالمه ،حتى أنه أصبح يترك شؤون المنزل على ممرضته ألم تصبح كذلك في نظره على الأقـــل ؟ فهي تمرض الاثنين معاً يظنها كذلـــك دون أن يضع في باله بأنها لم تخلق إلا لتكون ممرضة وليســـت مدبرة منزل

كان يستعد للسفر إلى دولة عربية من أجل تصوير مسلسله الجديد بعد أن درس السيناريو دراسة مفصلة وأطلع سلام عليه ،كانت تكره سفره وتكره وقوفه إلى جانب تلك الممثلة وجهاً لوجه في مسلسله الجديد ،تكره قربـــه منها وتفوقه عليها أجل إنهـــا فنانة ويحق لها أن تقف إلى جانبه دائماً وهي ماتزال ممرضة أمه وتعيش في منزله كالخادمة ...

القـــدر ... القدر قال كلمته : فوجئت ســـلام بـــل أصيبت بالفزع والخوف الشـــديد عندما دخلت غرفتها ووجدتهـــا على تلك الحال ،لم تقربها بـــل راقبتها من بعيد وحين أيقنت بأنها النهاية هرعت إليه على الفـــور ودخلت إلى غرفته وأقتحمتها دون إســـتئذان ووجدته مازال يحزم حقيبتـــه ودون أن يرفع وجهه عن الحقيبة ســـألها : ماذا هناك ؟

لم تجبه فســـمعها تبكي أحس بالأمر فرفع رأســـه ليراها على ذلك الحال

أيقن تماماً بأن أمه أسلمت الروح إلى بارئها

أخذها الموت دون أن تتحسن عاما مضى على رقادها .... عاشته بالمرض

والأدوية والعقاقير المنومة والمنوعة كل هذا لم ينتشلها من دوامة الألم ومن الصراعات التي كانت تحاربها بقوة ... حاربت مرضها بقوة إرادتها وإيمانها ولكنها على ما يبدو ملت من كل شيء ورحلت إلى حيث الخلود الأعظم

هاهي ترحل دون أن تشهد انتصاره الأخير غادرته قبل أن تلمح علائم الفرح والبهجة على وجهه نظر إليها وقد حار ماذا عليه أن يفعل تاه بلحظات عن واقعه وضعفت إرادته وإنحطت عزيمته وأحس بأن أعضائه قد شلت جميعها إنهار وانفجر بركان عينيه دموعاً.. ترك حقيبته وهرول إلى غرفة أمه كتائه مجنون

كانت تلك المرة الأولى التي تراه فيها يبكي من أعماقه ... ثم وضع رأسه بين كفيه وصاح : يا الله ... يا الله ماذا أفعل ؟

أخذ ذرع الغرفة ذهاباً وإياباً وثم ألقى نظرة مطولة وتغير لون وجهه فتحول بلحظات إلى إنسان أخر جديد تماماً عليها ،ماتت قبل أن تسامحه خاف من موتها أفزعه سلطان الموت وجبروته أما سلام جلست إلى جانبها وبكتها بمرارة فهي المرأة التي أحبتها كأمها ها هي تعيد إلى ذاكرتها مشهداً طالما أحبته تمنت له أن يتحقق مازالت تذكر حين جلست إلى جانبها يوماً وأخذت تشد على يدها المطروحة فوق السرير في نفس الوقت دخل سامر الغرفة فرمقت كليهما بنظرات حنونة صادقة لم يفهما معناها..

اقترب من أمه يومها كما لو أنه فهم ما أرادته فوضعت يدها فوق يديهما وضغطت عليهما بقوة ثم قال يومها : أفعل أي شيء فقد أريدك أن تسامحيني

ثم رمى برأسه فوق صدر أمه وهو يقول :

أماه .... سامحيني ماعدت أحتمل نظراتك الغاضبة

لطالما سألت نفسها : كيف فهم نظراتها الغاضبة ولماذا يطلب مسامحتها على الدوام وما الذي طلبته منه ووعدها بأن ينفذه على أن تسامحه ؟ أشياء كثيرة دارت في خلدها يومها وأخيراً قررت أن تنسى أمر ما فكرت به لأنها كانت تخشى أن تغرق نفسها في بحر الأوهام،لم تعد تحتمل النظر إلى تلك الجثة بل نهضت لتتجه إلى الجانب الأخر من الغرفة لتبكي وحدها بعيدة عنهما ،مرت لحظات أليمة ونظرات كل منهما تناجي نظرات الأخر ،يقف وحيداً حائراً يريدها أن تساعده وتنزع عنه بعض أحزانه وتشد من ازره ولكن كيف تفعل هذا ومن هي لكي تسمح لنفسها بمساعدته ؟

مازالت بنظره ممرضة أمه البسيطة

لمحته يقترب منها بينما عيناه شاخصة على جثة أمه الهامدة ولكن لماذا يقترب منها ؟ هذا ماكانت تسأله لنفسها قبل أن يتخط حدوده

فوجئت به حين تخطى تلك الحدود بالفعل وأخذها بين ذراعيه ويضمها إليه بقوة عذبها ذلك الضغط وأحست بأنه وجدها حجة وكأن معانقته لها ستعيد الروح إلى جسد أمه المسجى فوق السرير

من قال بأنه يستطيع أن يفرغ في صدرها باكورة أحزانه ؟

لعنت نفسها ألف مرة لأنها قبلت على نفسها ذلك الوضع دون اعتراضاً منها وكأنها أرادته أن يشعرها ويحس بقلبها النابض بحبه على الدوام ...

لم كل اعتراضها إن كان هو الرجل الذي تحب ؟

بقيت صامتة لم تحرك ساكناً لم ترفض لم ترفض اقترابه منها كانت ترتعش وترتجف تحس بأن أطرافها أصابها الصقيع وأعصابها تكاد تنهار أمام ذلك الموقف المحرج للغاية ولكنها تشعر بحزنه وجدت نفسها تحيطه بذراعيها ليس لحزنها على أمه بل لأنها مقربة من الرجل الذي تحب كل هذا القرب

فعلتها أخيراً واستيقظت من غفلتها وربما من توهانها وأيقنت تماماً بأنها أصبحت بين ذراعي الخطيئة حررت نفسها بصعوبة واتجهت نحو النافذة لتمسح دموعها كيف لا تبك رحيلها وهي أمه التي عاشرتها كل تلك الفترة ؟

سألها بعد صمته الطويل : اشيري إلي أرجوك ... ماذا أفعل ؟

:لا تفعل شيئاً سأذهب إلى منزل خالتي فهو قريب من هنا يمكنها المساعدة

:وماذا عن أمك ؟

:لا أريدها أن تعلم بالأمر الآن

أدرك تماماً ما قصدته فهو يعلم علم اليقين بأن أمها إن علمت بالأمر لن تسمح لها بالبقاء ثانية واحدة في منزله

اقترب من أمه ونظر إليها وهي في مهد طهارتها وحنانها وكبريائها وانحنى فوقها يقبل وجهها أراد أن يودعها الوداع الأخير وطلب منها وللمرة الأخيرة أن تصفح عنه ولكن هيهات فهل تسمعه ؟

:أمي ماذا فعلت لتنالي من الله كل ذلك العذاب الذي عشته؟ أيمكن أن أكون أنا السبب ؟ أجل ربما أكون كذلك لأنك فضلتني

عن أختي وكنت أنا من أحتل المكانة الأكبر في قلبك انهضي وحدثيني فأنا لم أودعك بعد

فقد السيطرة على نفسه وصرخ :

سحقاً لي ماذا أريد من الحياة بعد الآن وقد أصبحت أمي جثة هامدة ؟

ماذا ينتظر الإنسان بعد حياة طويلة عاشها بالحب والكره ... أينتظر الموت

هل سأنتظر الموت بعد الفن والشهرة والفرح وحب الناس والكره بعد الحزن والسائل والمجيب ؟ ماذا ننتظر بعد كل هذا؟ الموت... الموت فقط لا سواه فأعماله أما أن تدخله إلى الجنة أو تودي به إلى الجحيم ماذا تصنع الشهرة ؟ وماذا يبني الفنان للمستقبل ؟حب الناس ... المال .... لا ... لا شيء إلا الموت ،أمي الحبيبة هذه رحلتك الأخيرة اليوم تسافرين إلى حيث يسافر الناس جميعاً إلى عالم البرزخ ... رباه كم نحن جاهلين في أمور الدين والدنيا

اقتربت سلام منه ونظرت إلى كليهما وقالت له : لماذا عندما يرحلون عنا من نحبهم نقول : بالأمس كانوا معنا ؟

نظر إليها قاطب حاجبيه ... بل نقول : منذ لحظات كانوا معنا

***

مضى إسبوعاً كاملاً على رحيلها وحان وقت رحيل سلام إلى

عالمها... إلى حيث تنتمي..

مازالت في غرفتها الأنيقة. . ألقت عليها نظرة مطولة تأملت محتوياتها وسريرها ونافذتها تأملت الستائر الحريرية وفكرت لكم

وقفـــت أمام النافذة ولكم رسمت أحلاماً تفـــوق الخيال حلمت ذات يوم بأن هذه الغرفة غرفتهما معـــاً وذلك الأثاث الأنيق ابتاعه لها خصيصاً من الســـوق ....لكم تمنت أن تكتب له قصيدة شعر مطولة تلقيها على مســـامعه ليعرف مدى الحب الذي تحمله له أشـــياء كثيرة حلمت بها حتى المرآة كان لهـــا الحصة الأكبر في رحلة أحلامها الطويلة حتى كادت تأخذ كل اهتمامهـــا إنها المرآة التي كانت تقف أمامها ذات يوم حين دخل الغرفة فجأة وأرعبها... في تلك الليلة قبلها لأول مرة فعرفت من خلال قبلته تلك لذة الحياة تذوقت طعم الحب ... ولكن ماذا نفعت هذه الغرفة أمه ؟ لم تنفعها بشـــيء إنها كغرف الأميرات ساحرة جميلة ولكنها لم تشـــهد فيها إلا على المرض والآلام لفـــترة طويلة من الزمن تأملت كل شيء ثم خرجت منها

كان مايـــزال يجلس في الصالون عندما لمحهـــا تخرج من غرفة أمه ومعها حقيبة ملابســـها نظر إليها مندهشـــاً وكأنه ظن بأنها باقية في منزله إلى الأبد ســـألها : إلى أين ؟

استغربت سؤاله السخيف ولكنها أجابته : إلى منزلي

ولكنني مازلت أحتاجك

من كانت تحتاجني رحلت ...

أنا أيضاً أحتاجك كيف تتركيني وأنا في أمس الحاجة لوجودك هنا ؟

لديك خادمتك وأنا لدي عملي في المستشفى

سأضاعف أجرك

حدقت به محتقرة عرضه الســـخيف وتســـاءلت بينها وبين نفسها :

لا أظنك تطلب مني أن أكون ممرضتك ؟

أسف على عرضي ولكنني حقاً أحتاج لوجودك

سيدي استيقظ من أوهامك ففترة عملي هنا انتهت أريد الرحيل لدي في المستشفى واجبات أخرى تنتظرني

أرجوك سلام :لا ترجوني فأنت لا تملكني لقد كنت أؤدي واجبي كممرضة تجاه أمك وها هي قد رحلت فماذا سأفعل إن بقيت هنا ؟

ثم خاطبته ساخرة : أخشى أنك تريدني أن أصنع لك قهوة الصباح أو أعد لك طعام الإفطار ؟ أم أنك تريدني أن أقوم بدور أمك وأمنحك قبلة كلما ضاق الحال بك ؟

نظر إليها مندهشاً إسلوبها الجديد ولم يقل شيئاً رداً على كلامها بل ردت عليه هي حين تابعت : فاجأْتك أليس كذلك ؟ ومع ذلك أنا لا أقول إلا الحقيقة

:صدقيني أحتاج لوجودك هنا إلى جانبي

:ولماذا إن شاء الله ؟ لا تخبرني بأنك تحتاجني كما يحتاج الرجل حبيبته التي من خلالها يستطيع أن يفرغ شهواته ورغباته المكبوتة ؟ أم أنك تحتاج إلى خادمة تسهر على راحتك

:اقترب منها وقال : تعلمي ألا تسخري مني

:وأنت ألا تسخر مني عندما تهينني بطلبك هذا ؟ تطلب مني البقاء في مكان ليس مكاني أنت تعلم بأن كلانا شابين وبقائي هنا لا يجوز ف للناس ألسن كما تعلم وأنا من أسرة محافظة وأخاف على سمعتي ربما علمك مجتمعك الذي تنتمي إليه التحرر بعض الشيء حتى ظننت نفسك في أوروبا بحيث يستطيع الشاب أن يسكن مع شريكة له وربما عشيقة ولكن في مجتمعنا هذا مستحيل لأن عالمنا يختلف تماماً عن

عالمك وعالمهم لا تنسى بأنني حرة وأمك رحمها الله ...

:لم أنسى ذلك مطلقاً ...

تجرأ بالاقتراب منها أكثر فتناول حقيبتها من يدها ووضعها على الأرض ثم تمادى بجرأته فلمـــس وجهها بأطراف أصابعه ثم قرب وجهه من أذنها وهمس بها :تسحرني عيناك ...

قالت له وهي تشعر بحرارة أصابعه : إلى حدالسحر

صارت تحدث نفسها..

:ليتك كنت صادقاً معي لكان اختلف الوضع ...

قطع عليها حديث نفسها حين سألها..

:هل سأراك من جديد ؟

:لم لا تدع ذلك للظروف ؟

:أنت محقة ... أنا لا أملكك ...

:يعجبني اعترافك أخيراً ...

:ربما أفعلها ذات يوم كنت سعيداً بوجودك هنا ...

:وأنا أيضـــاً ... انحنت وتناولت حقيبتها مـــن جديد ثم نظرت إليه وقالت :سأشـــتاق إلى هذا المكان ...

ســـارت نحو الباب الخارجي ببطء ووقفت لبعـــض الوقت لتلق على ســـامر نظرة أخيرة بعينين ترقرق في إنسيابهما الدمع وفجأة رأته يقترب منها من جديـــد كما لو أنه تذكر فجأة بـــأن رجولته تحتم عليه ،أن يكون مهذباً معها ويقلها إلى منزلها بسيارته رأته يحمل سترته على عجل

ويتجه نحو الباب الخارجي وهو يقول :سـأقلك إلى المنزل ...

لم تمانع بل ابتسـمت راضية عن الأمر وسـارت إلى خارج المنزل قبله ووقفت أمام باب السيارة وانتظرت إلى أن يتكرم عليها ويفتح لها الباب الخلفي الذي تقف أمامه إلا أنه لم يفعل بل قال لها : تعالي وإجلسـي هنا..

يحق لك الجلوس إلى جانبي فلست أنا سائقك الشخصي ولست أنت سيدتي ...

فتح باب السـيارة فدلفت إلى داخلها ثم دار حولها وفتح بابها الأخر دخل ليجلس إلى جانبها بهدوء بينما كانت ماتزال تسـوي ثوبها عل ساقيها ... كانت تشعر بالفخر فهذه المرة الأولى التي تصعد فيها سيارته وتجلس إلى جانبه ... شغل محرك السيارة وانطلقت بهما إلى حيث تريد هي ...

حزنـت كثيراً كون ذلـك اللقاء كان الأخـير بينهما فأمه التي كانت تجمعهما قـد ماتت وبموتها انتهى كل شـيء بينهما

عادت إلى منزلها وحيها الفقير عادت لتعيش كما كانت في السابق مع أخوتها الهذيلين شاحبي الوجوه عادت لتعايش واقعها المرير إنه قدرها من الذي يسـتطيع الهروب من قدره وإن هربت مـاذا يكون مصيرها ؟ .....

نهضـت من كبوة أحلامها وفتحت عينيها لتجد نفسـها قابعة بين النـاس الذين تحبهم أهلها ... عالمهـا .... أخوتها... كل ماتملك

قررت أن تنسى أين كانت تعيش بالأمس لتعيش حياتها كما قدر لها ،لايمكنها أن تنكر بأنها مازالت مسـحورة بذلك الواقع الذي عاشت فيه

لفترة من الزمن مســـحورة بالوهم ربما وبالحب الذي لم تكتب له الولادة لأنـــه أجهض قبل الآوان فالحب الذي تحمله لـــه جداً عميق ونزعه من قلبها هو المستحيل نفسه،من يسرقها من ذلك المستحيل إلا هو إن قالها وعلى الملأ بأنه يحبها ؟

ولكن هيهات إلى أن يقولها وهو يعيش بين النجوم ... والأضواء...

تسأل نفسها لا تدري فالقدر دائماً هو الذي يتكلم ....

الكاتبة فى سطور

فاطمة زكريا البقاعى

روائية وقاصة

الجمهورية العربية السورية

نشرت لها العديد من الأعمال

فى جرائد ومجلات عربية

جريدة اليوم الدولى

جريدة المشاهير

مجلة قادح زناد الحروف

منتدى الرواية العربية

نشارك بفاعلية فى المنتديات

والدوريات الأدبية

سلسة اصدارات قادح للأعمال الأدبية

صدر من هذه السلسة :

١. ديوان نبضات عربية - مجموعة من الشعراء العرب يناير ٢٠١٨

٢. ديـــوان القدس عـــروس عروبتكـــم - مجموعة من الشـــعراء العرب مارس٢٠١٨

٣. ديوان قول ياقلم للشاعر ياسر عبد الحميد أبريل ٢٠١٨

٤. رواية مانيرفا للكاتبة سلمى عبد الهادى مايو ٢٠١٨

٥. ديوان زهور العمر للشاعرة حليمة نور- المغرب - يونية ٢٠١٨

٦. ديوان أرض الفيروز - مجموعة من الشعراء العرب- يوليو ٢٠١٨

٧. ديوان مابعد الستين للشاعر عز العرب حين بخيبت

٨. ديوان تحت الرماد للشاعر كريم حسن الشمرى - العراق

تتوالى اصدارات سلســـلة قـــادح زناد الحروف فى تقديم مشـــروعها الثقافى والفكرى بنشـــر إبداعات الموهوبين وأصحاب الأصوات الجادة فى شتى عواصم الوطن العربى من خلال ما تصدره من أعمال أدبية لشعراء وأدباء من مصر ومحيطها العربى وقد سعدت كثيرا بالمشاركات الجادة للشـــعراء العرب من المغرب والجزائر وليبيا والسودان وفلسطين وسوريا والعراق واليمن والســـعودية وآمل فى تحقيق المزيد من التقدم فى تلك السلاســـل الإبداعية لتضم جميع الوطن العربى والناطقين بالعربية فى كل بقاع الأرض ، لدينا مشروع طموح فى تبنى المواهب الأصوات المبدعة

فى كافة فروع الأدب من شـــعر وقصة ورواية وســـوف نضيف لها المسرح والكتاب الفكرى والأعمال النقدية ، لتفتح الأفق أكثر أمام كل الأقلام المبدعـــة فى وطننا العربى للتعبير عن نفســـها فأهـــلا ومرحبا بكم فى قادح زناد الحروف ويمكنكـــم التواصل معنا عبر الآرقام التالية أو البريد الألكترونى